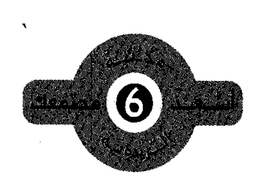
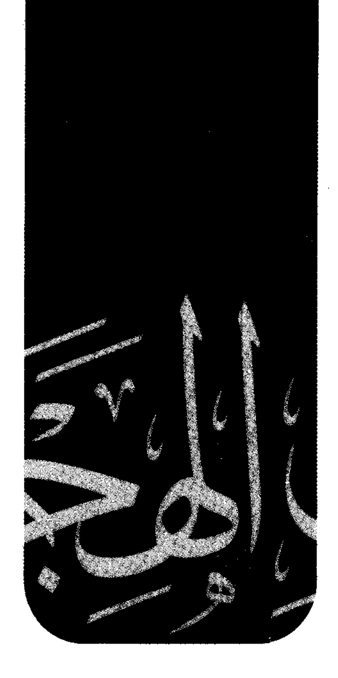




مختصر



وباب السعادتين

للإمام ابن قيم الجوزية

اختصره



أستاذ الدراسات الإسلامية المشارك
كلية التربية - جامعة الملك سعود



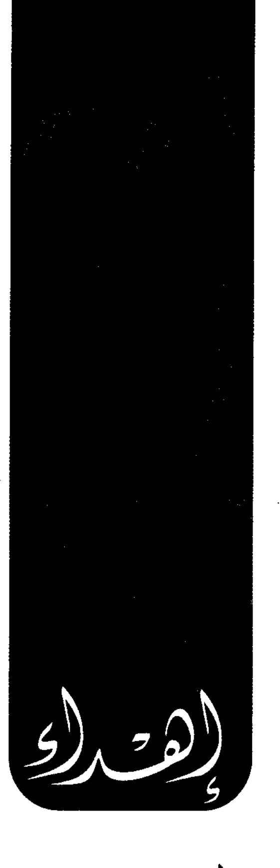




١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م



هاتف : ٠٠٩٦٦٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط)
فاكس : ٠٠٩٦٦٤٧٢٣٩٤١
الموقع على الإنترنت :
www.madaralwatan.com
البريد الإلكتروني :
pop@madaralwatan.com



إهداء

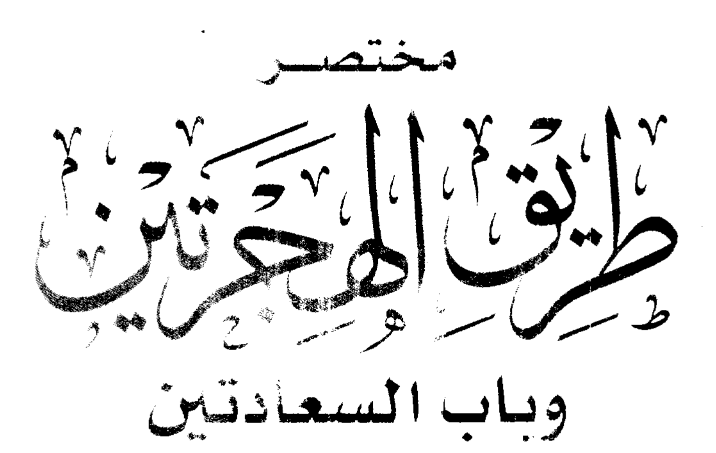
إلى والدي ووالدتي

فيض الحب ونبع العطاء

أسعدهم الله دنيا وآخرة . والمسلمين

▪▪▪▪▪

ابنكم : أحمد


مختصر
طريق الهجرتين
وباب السعادتين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

•• المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على البشيرِ النذيرِ، والسراجِ المنيرِ الهادي إلى صراطِ الله المستقيمِ، وعلى آلهِ وأصحابهِ والتابعين وبعد:

فإنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، يزيدُ بالطاعاتِ وينقصُ بالمعاصي، والقولُ والعملُ لا يختصان بالجوارحِ فقط، بل هناك قولُ القلبِ وعملُهُ، وإذا صلحَ الباطنُ صلحَ الظاهرُ ولابدَّ. كما في الحديثِ: **«ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةٌ إذا صلحتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّهُ ألا وهي القلبُ»**[1].

فكما أنَّ هناك عباداتٍ تقومُ بها الجوارحُ، فإنَّ للقلبِ عباداتٍ هي أساسُ إسعادِ المجتمعِ، إذا ما التزمَ الجميعُ القيامَ بها، والاستقامةَ عليها، وتربيةَ النشءِ على أساسِها، فيعيشوا حقيقةَ هذا الدينِ الذي جاءَ لسعادةِ البشرِ، كما أنَّ من ثمارِ هذه العباداتِ القلبيةِ أنها تقرِّبُ صاحبَها من ربِّهِ ﷻ، فيشملُهُ الحفظُ الإلهيُّ، والكلاءةُ الربانيةُ حينها يبصرُ المرءُ ما يُرضي، ويَسمعُ ما يقرِّبُ منه سبحانه.

«فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ، وبصرَهُ الذي يُبصرُ بهِ، ويدَهُ التي يَبْطِشُ بها ورجلَهُ التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّهُ، ولئنِ استعاذني لأعيذنَّهُ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢١).

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٢٩٩٦).

فيعيشُ المرءُ بين رياضِ هذه العباداتِ الجليلةِ من المحبةِ والتعظيمِ والإنابةِ والصبرِ، والخوفِ والخضوعِ، والشكرِ والاستقامةِ، وغيرِها.

فيزدادُ إيمانًا ويقينًا وصبرًا، وتعظُمُ حينئذٍ سعادتُهُ، وينالُ رضا ربِّهِ.

وقد جاءَ كتابُ طريقِ الهجرتين وبابِ السعادتين لابنِ القيِّم دليلًا عمليًّا لسعادةِ المسلمِ والمسلمةِ حافلًا ببيانِ هذه العباداتِ القلبيةِ وحدودِها وأقسامِها التي ما أحوجَنَا إليها في واقعِنا المعاصرِ.

فتكلمَ بدايةً عن غنى الربِّ تعالى من كلِّ وجهٍ، وهو الغنَى المطلقُ المرتبطُ بذاتِهِ سبحانَهُ، لا لأمرٍ أوجبَهُ. ثم تكلمَ عن فقرِ العبادِ إلى الله من كلِّ وجهٍ، وأنَّ أفقرَ العبادِ إلى الله هو أغناهم بالله تعالى، ولذلك فقد قسَّمَ الغنَى في الخلقِ إلى عالٍ وسافلٍ وبيَّنَ كلَّ واحدٍ من النوعين:

ثم تكلمَ عن مراتبِ القضاءِ والقدرِ والحكمةِ في أفعالِ الله ﷻ. ثمَّ ذكرَ مشاهدَ الناسِ في المعاصي، والذنوبِ. ثم تكلَّمَ عن الإنابَةِ ودرجاتِها والاستقامةِ على الطريقِ المستقيمِ، وأنَّ ذلك لا يتحققُ إلا بقوتين علميةٍ وعمليةٍ، وبيَّن حدودَ هاتين القوتين.

وتكلَّمَ عن أقسامِ العبادِ في سفرِهم إلى الله تعالى، وأنَّ أهلَ الإيمانِ ينقسمون إلى ثلاثِ أقسامٍ:

ظالمٍ لنفسِهِ، ومقتصدٍ، وسابقٍ بالخيراتِ. ثم تناولَ بالحديثِ الكلامَ في الزهدِ والتوكلِ والصبرِ، والخوفِ والمحبةِ.

ثم ختمَ الكتابَ بذكرِ مراتبِ المكلفين في الدارِ الآخرةِ، وطبقاتِهم فيها،

وقد قسَّمهم إلى ثمانِ عشرةَ طبقةً ابتدأَهم بالطبقةِ العليا على الإطلاقِ، وهم الرسلُ أكرمُ الخلقِ على الله وختَمَهم بطبقةِ الجنّ.

وقد امتازَ هذا الكتابُ بإبرازِ أهميةِ القيمِ والعباداتِ القلبيةِ، وذِكْرِ آثارِها، وما وردَ في شأنِها من نصوصِ الكتابِ والسنةِ.

وتظهرُ أهميةَ هذا الكتابِ في هذا الوقتِ الذي طغتِ الماديةُ والجفافُ الروحيُّ والعللُ القلبيةُ على أهلِ زمانِهِ ـ إلا من رَحِمَ اللهُ ـ.

وفي هذا المختصرِ خلاصةٌ لما جاءَ في هذا السِّفْرِ المباركِ، نسألُ اللهَ أنْ ينفعَ به كما نفعَ بأصلِهِ، وأنْ يُسعدَنا جميعًا دنيا وآخرة.



أستاذ الدراسات الإسلامية المشارك
كلية التربية - جامعة الملك سعود
aalmazyad@ksu.edu.sa

مختصر

طريق الهجرتين

وباب السعادتين

•• في أن اللهَ هو الغنيُّ المطلقُ والخلقُ فقراءُ محتاجون إليه

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

بيَّن سبحانه في هذه الآيةِ أن فَقْرَ العبادِ إليه أمرٌ ذاتيٌّ لهم لا ينفكُّ عنهم، كما أن كونَه غنيًّا حميدًا أمرٌ ذاتيٌّ له. فغناه وحمدُه ثابتٌ له لذاتِه لا لأمرٍ أَوْجبَه، وفقرُ من سِواه إليه أمرٌ ثابتٌ لذاتِه لا لأمرٍ أوجبَه.

كما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ:

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا   كما الغِنَى أبدًا وصفٌ له ذاتي

فالخلقُ فقيرٌ محتاجٌ إلى ربِّه بالذاتِ لا بعلةٍ، فالفقيرُ بذاتِه محتاجٌ إلى الغنيِّ بذاتِه، فما يُذكرُ من إمكانٍ وحدوثٍ واحتياجٍ فهي أدلةٌ على الفقرِ، لا أسبابٌ له. فيستحيلُ أن يكونَ العبدُ إلا فقيرًا، ويستحيلُ أن يكونَ الربُّ تعالى إلا غنيًّا، كما أنه يستحيلُ أن يكونَ العبدُ إلا عبدًا والربُّ إلا ربًّا.

إذا عُرف هذا، فالفقرُ فقرانِ:

• فقرُ اضطرارٍ، وهو فقرٌ عامٌّ لا خروجَ لِبَرٍّ ولا فاجرٍ عنه. وهذا الفقرُ لا يقتضِي مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلةِ كونِ المخلوقِ مخلوقًا ومصنوعًا.

• والفقرُ الثاني فقرٌ اختياريٌّ هو نتيجةُ علمينِ شريفينِ: أحدُهما معرفةُ العبدِ بربِّه، والثاني معرفتُه بنفسِه؛ فمتى حَصَلَتْ له هاتانِ المعرفتانِ أنتجَا له فقرًا هو عينُ غناه وعنوانُ فلاحِه وسعادتِه.

وتفاوتُ الناسِ في هذا الفقرِ بحسبِ تفاوتِهم في هاتينِ المعرفتينِ، فمن عرفَ ربَّه بالغِنَى المطلقِ عرفَ نفسَه بالفقرِ المطلقِ، ومن عرفَ ربَّه بالقدرةِ التامَّة عرف نفسَه بالعجزِ التامِّ، ومن عرفَ ربَّه بالعزِّ التامِّ عرفَ نفسَه بالمسكنةِ التامةِ، ومن عرفَ ربَّه بالعِلْمِ التامِّ والحكمةِ عرفَ نفسَه بالجهلِ.

فاللهُ تعالى أخرجَ العبدَ من بطنِ أمِّه لا يعلمُ شيئًا، ولا يقدرُ على شيءٍ، ولا يملكُ شيئًا، ولا يقدرُ على عطاءٍ ولا منعٍ، ولا ضرٍّ ولا نفعٍ ولا شيءٍ البتةَ؛ فكان فقرُه في تلك الحالِ إلى ما به كمالُه أمرًا مشهودًا محسوسًا لكلِّ أحدٍ، ومعلومٌ أنَّ هذا له من لوازمِ ذاتِه، وما بالذاتِ دائمٌ بدوامِها، وهو لم ينتقلْ من هذه الرتبةِ إلى رتبةِ الربوبيةِ والغِنَى، بل لم يزلْ عبدًا فقيرًا بذاتِه إلى بارئِه وفاطرِه.

فلمَّا أسبغَ عليه نعمتَه، وأفاضَ عليه رحمتَه، وساقَ إليه أسبابَ كمالِ وجودِه ظاهرًا وباطنًا، وخلعَ عليه ملابسَ إنعامِه، وجعلَ له السمعَ والبصرَ والفؤادَ، وعلَّمَه، وأقدرَه، وحرَّكه، وصرَّفه، ومكَّنه من استخدامِ بني جنسِه، وسخَّر له الخيلَ والإبلَ وسلَّطه على دوابِّ الماءِ، واستنزالِ الطيرِ من الهواءِ، وقهرِ الوحوشِ العاديةِ، وحفرِ الأنهارِ، وغرسِ الأشجارِ، وشقِّ الأرضِ، وتعليةِ البناءِ، والتحيُّلِ على جميعِ مصالحِه، والتحرزِ والتحفظِ ممَّا يؤذيه ظنَّ المسكينُ أن له نصيبًا من الملكِ، وادَّعى لنفسِه مِلْكَةً مع الله، ورأى نفسَه بغيرِ تلك العينِ الأولى، ونسِيَ ما كان فيه من حالةِ الإعدامِ والفقرِ والحاجةِ، حتى كأنَّه لم يكنْ هو ذلك الفقيرَ المحتاجَ المضطرَّ، بل كان ذلك شخصًا آخرَ غيرَه؛

كما روى الإمامُ أحمدُ في مسندِه من حديثِ بُسر بن جِحاشٍ القُرشيِّ أن رسولَ الله ﷺ بصَقَ يومًا في كفِّه فوضعَ عليها إصبعَه ثم قال: «**قال الله عز وجل: بُنيَّ آدمَ، أنى تُعْجِزُني! وقد خلقْتُك من مِثْلِ هذه، حتى إذا سويتُك وَعَدَلْتك مشيتَ بين بُردينِ، وللأرضِ منك وئيدٌ**[1]**، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلَغتِ التراقيَ قلتَ: أتصدَّقُ، وأنَّى أوانُ الصدقةِ!**»[2].

ومن ههُنا خُذِلَ من خُذِلَ ووفِّقَ من وفِّقَ، فحُجِب المخذولُ عن حقيقتِه وأُنسي نفسَه، فنسي فقرَه وحاجتَه وضرورتَه إلى ربِّه، فطغَى وبغَى وعتَا، فحقَّتْ عليه الشِّقوةُ. قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠].

فأكملُ الخلقِ أكملُهم عبوديةً وأعظمُهم شهودًا لفقرِه وحاجتِه وضرورتِه إلى ربِّه وعدمِ استغنائِه عنه طرفةَ عينٍ. ولهذا كان من دعائِه ﷺ: «**أصلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تكِلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ، ولا إلى أحدٍ من خلقِك**»[3].

وكان يدعُو: «**يا مقلِّبَ القلوبَ ثبتْ قلبي على دينِك**»[4]. يعلمُ ﷺ أنَّ قلبَه بيدِ الرحمنِ عزَّ وجلَّ لا يملكُ هو منه شيئًا، وأن اللهَ عزَّ وجلَّ يُصرِّفُه كما يشاءُ، كيف وهو يتلو قولَه عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤].

---

(١) **الوئيد**: صوت شدة الوطء على الأرض يُسمع كالدوي من بُعد.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٤٢)، وابن ماجه (٢٧٠٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٤٣٠) مطولًا، وأبو داود (٥٠٩٠).

(٤) اخرجه أحمد (١٧٦٣٠) مطولًا، وابن ماجه (١٩٩).

فضرورتُه ﷺ إلى ربِّه وفاقتُه إليه بحسبِ معرفتِه به، وبحسبِ قُربِه منه ومنزلتِه عنده، ولهذا كان أقربَ الخلقِ إلى الله وسيلةً، وأعظمَهم عنده جاهًا، وأرفعَهم عنده منزلةً؛ لتكميلِه مقامَ العبوديةِ والفقرِ إلى ربِّه عز وجل.

وكان يقولُ لهم: «**أيها الناسُ ما أُحبُّ أن ترفعوني فوقَ منزِلتي، إنما أنا عبد**»، وكان يقول: «**لا تُطروني كما أطرتِ النصارى المسيحَ ابنَ مريمَ، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[1].

وذكَرَه الله عزَّ وجلَّ بسمَةِ العبوديةِ في أشرفِ مقاماتِه: مقامِ الإسراءِ، ومقامِ الدعوةِ، ومقامِ التحدِّي. فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]. وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]. وفي حديثِ الشفاعةِ: «**إن المسيحَ يقولُ لهم: اذهبوا إلى محمدٍ عبدٍ غَفَرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبِه وما تأخَّر**»[2]. فنال ذلك المقامَ بكمالِ عبوديتِه لله وبكمالِ مغفرةِ الله له.

وتأملْ قولَه في الآيةِ: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]، فعلَّق الفقرَ إليه باسمِه «الله» دونَ اسمِ الربوبيةِ ليؤذِنَ بنوعَي الفقرِ، فإنه - كما تقدم - نوعانِ: فقرٌ إلى ربوبيتِه، وهو فقرُ المخلوقاتِ بأسرِها؛ وفقرٌ إلى إلَهيَّتِه، وهو فقرُ أنبيائِه ورسلِه وعبادِه الصالحينَ، وهذا هو الفقرُ النافعُ. والذي يشير إليه القومُ، ويتكلمونَ عليه، ويشمرونَ إليه، هو الفقرُ الخاصُّ لا العامّ.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٦).

•• في الغنى وانقسامه إلى عالٍ وسافل:

ولما كان الفقرُ إلى الله عزَّ وجلَّ هو عينُ الغنِى به، فأفقرُ الناسِ إلى الله أغناهم به، وأذلُّهم له أعزهَم، وأضعفُهم بين يديْه أقواهُم، وأجهلُهم عند نفسِه أعلمُهم بالله، وأمقتُهم لنفسِه أقربُهم إلى مرضاةِ الله، كان ذكرُ الغنِىَ بالله مع الفقرِ إليه متلازمَيْنِ متناسِبَيْنِ، فنذكرُ فصلًا نافعًا في الَغِنَى العَالي.

• **والغنى قسمان:** غنًى سافلْ، وغنى عالٍ، فالغِنَى السافلُ: الغِنَى بالعواري المستَردَّةِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسومةِ والأنعامِ والحرثِ، وهذا أضعفُ الغِنَى؛ وأما الغِنَى العالي فقال شيخُ الإسلامِ: «هو على ثلاثِ درجاتٍ: الدرجةُ الأولى: غِنَى القلبِ، والدرجةُ الثانيةُ: غِنَى النفسِ، والدرجةُ الثالثةُ: الغنى بالحق».

قلتُ: ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ليس الغِنَى عن كثرةِ العَرَضِ، ولكنَّ الغِنَى غِنَى النفسِ**»[1]. ومتى استغنتِ النفسُ استغنى القلبُ.

والقلبُ إذا استغْنَى بما فاضَ عليه من مواهبِ ربِّه وعَطَاياه السنيةِ خَلعَ على الأمراءِ والرعيةِ خِلَعًا تناسبُها: فخلعَ على النفس خِلَع الطمأنينةِ والسكينةِ والرِّضا والإخباتِ، فأدَّتِ الحقوقَ سماحةً لا كظمًا بل بانشراحٍ ورضًا ومبادرةٍ.

وخلَعَ على الجوارحِ خِلَع الخشوعِ والوقارِ، وعلى الوجهِ خِلْعةَ المهابةِ والنورِ والبهاءِ، وعلى اللسانِ خِلعةَ الصدقِ والقولِ السديدِ الثابتِ والحكمةِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

النافعةِ، وعلى العين خِلعةَ الاعتبارِ في النظرِ والغضِّ عن المحارمِ، وعلى الآذانِ خِلعةَ استماعِ النصيحةِ واستماعِ القولِ النافع استماعُه للعبدِ في معاشِه ومعادِه، وعلى اليدينِ والرجلين خِلعةَ البطشِ في الطاعاتِ أين كانت بقوَّةٍ وأيدٍ، وعلى الفرج خِلعةَ العفَّةِ والحفظِ؛ فغدا العبدُ وراحَ يرفُلُ في هذه الخِلَع، ويجرُّ لها في الناسِ أذيالًا وأردانًا.

فغنَى النفسِ مشتقٌّ من غِنَى القلبِ وفرعٌ عليه، فإذا استغنى سَرَى الغِنَى منه إلى النفسِ. وغِنَى القلبِ بما يناسبه من تحقُّقِه بالعبوديةِ المحضةِ التي هي أعظمُ خِلْعةٍ تُخلعُ عليه، فَيَسْتغني حينئذٍ بما تُوجبه هذه العبوديةُ له من المعرفةِ الخاصةِ والمحبةِ الناصحةِ الخالصةِ، وبما يحصلُ له من آثار الصفاتِ المقدسةِ وما تقتضيه من الأحكامِ والعبودياتِ المتعلقةِ بكلِّ صفةٍ صفةٍ.

فإذا استغنَى القلبُ بهذا الغِنَى الذي هو غايةُ فقرِه استغنتِ النفسُ غنىً يناسبُها، وذهبتْ عنها البرودةُ التي توجبُ ثقلهَا وكَسَلها وإخلادَها إلى الأرضِ، وصارتْ لها حرارةٌ توجبُ حركتَها وخفَّتَها في الأوامرِ وطلبَها الرفيقَ الأعلى، وصارتْ برودتُها في شهوتِها وحظوظِها ورعونَتِها.

•• في تفسيرِ الدرجةِ الثانيةِ، وهي غنى النفس:

قولُه: الدرجةُ الثانيةُ: غِنَى النفسِ يريدُ به استقامتَها على الأمرِ الدينيِّ الذي يحبُّه اللهُ ويرضَاه، وتجنُّبَها لمناهِيه التي يَسخطُها ويُبغضُها، وأن تكونَ هذه الاستقامةُ على الفعلِ والتركِ تعظيمًا للهِ وأمرِه، وإيمانًا به، واحتسابًا

لثوابِهِ، وخشيةً من عقابِه؛ لا طلبًا لتعظيمِ المخلوقينَ له ومدحِهم، وهربًا من ذمِّهم وازدرائِهم، وطلبًا للجاهِ والمنزلةِ عندَهم. فإنَّ هذا دليلٌ على غايةِ الفقرِ من الله، والبعدِ منه، وأنه أفقرُ شيءٍ إلى المخلوقِ.

فسلامةُ النفسِ من ذلك واتصافُها بضدِّه دليلُ غِنَاها؛ لأنها إذا أذعنتْ منقادةً لأمرِ الله طوعًا واختيارًا ومحبةً وإيمانًا واحتسابًا، بحيثُ تصيرُ لذَّتُها وراحتُها ونعيمُها وسرورُها في القيامِ بعبوديتِه، كما كان النبيُّ ﷺ يقول: «**يا بلالُ أرحْنَا بالصلاةِ**»[1]، وقال ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساءُ والطيبُ، وجُعِلتْ قُرةُ عيني في الصلاةِ**»[2].

وقُرَّة العين فوقَ المحبة.

وإذا وصَلتِ النفسُ إلى هذه الحالِ استغنتْ بها عن التطاولِ إلى الشهواتِ التي توجبُ اقتحامَ الحدودِ المسخوطةِ، والتقاعدَ عن الأمورِ المطلوبةِ المرغوبةِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨]، وفي القراءة الأخرى: ﴿يُدافِعُ﴾. فكمالُ الدفعِ والمدافعةِ بحسَبِ قوَّةِ الإيمانِ وضعفِه.

فإذا صارتِ النفسُ حرَّةً مطمئنةً غنيةً بما أغناها به مالكُها وفاطرُها من النورِ الذي وقعَ في القلبِ، ففاضَ منه إليها استقامَتْ بذلك الغنى على الأمرِ المرغوبِ، وسلِمتْ به عن الأمرِ المسخوطِ، وبرِئتْ من المراياة[3]. ومدارُ

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠٨٨، ٢٣١٥٤)، وأبو داود (٤٩٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣، ١٢٢٩٤، ١٣٠٥٧). والنسائي (٣٩٤٠).

(٣) المراياه: الرياء.

ذلكَ كلِّه على الاستقامةِ ظاهرًا وباطنًا، ولهذا كان الدِّينُ كلُّه في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣].

•• في الدرجةِ الثالثةِ وهي: الغِنَى بالحقِّ سبحانه :

وهذه الاستقامةُ تُرقِّيها إلى الدرجةِ الثالثةِ مِن الغِنَى، وهو الغِنَى بالحقِّ تبارك وتعالى عن كلِّ ما سواه، وهي أعلى درجاتِ الغِنَى.

فأوَّلُ هذه الدرجةِ أن تشهدَ ذِكْرَ الله عزَّ وجلَّ إيَّاك قبل ذِكْرِك له، وأنه تعالى ذَكَرَك فيمن ذَكَره من مخلوقاتِه ابتداءً قبلَ وجودِك وطاعتِك وذِكْرك، فقدَّر خَلْقَك ورِزْقَك وعَمَلَك وإحسانَه إليك ونعمَه عليك حيث لم تكن شيئًا البتةَ.

وَذَكَرَك سبحانَه بالإسلامِ، فوفَّقك له، واختارك له دونَ من خَذَله، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]، ومن الذي ذَكَرَك سواه بالتوبةِ حتى وفَّقَك لها، ومن الذي ذَكَرك سواه بمحبتِه حتى هاجَتْ من قلبِك لَواعجُها.

فلولا سابقُ ذكرِه إياك لم يكنْ من ذلك كلِّه شيءٌ، ولا وصلَ إلى قلبِك ذرةٌ مما وصَلَ إليه من معرفتِه وتوحيدِه ومحبَّته وخوفِه ورجائِه والتوكلِ عليه والإنابةِ إليه والتقربِ إليه. فهذه كلُّها آثارُ ذكرِه لك.

فإذا شَهِدَ العبدُ ذِكْرَ ربِّه له، ووصَلَ شاهدُه إلى قلبِه شَغَلَه ذلك عمَّا سواه، وحصَلَ لقلبِه به غنىً عالٍ لا يُشبِهُه شيءٌ.

والمقصودُ أن شعورَ العبدِ وشهودَه لذكرِ الله له يُغني قلبَه ويسدُّ فاقَتَه، وهذا بخلافِ من نَسُوا الله فنسِيَهم؛ فإن الفقْرَ من كلِّ خيرٍ حاصلٌ لهم، وما يظنون أنَّه حاصلٌ لهم من الغِنَى فهو من أكبرِ أسبابِ فَقْرِهم.

وقال إبراهيمُ بنُ أدهمَ: «طلبْنَا الفقرَ فاستقْبَلَنا الغِنَى، وطلبَ الناسُ الغِنَى فاستقْبَلَهم الفقرُ».

وسُئل يحيى بنُ معاذٍ عن الغِنَى فقال: «هو الأمنُ باللهِ عزَّ وجلَّ».

وقال أبو حفصٍ: «أحسنُ ما توسَّلَ به العبدُ إلى مولاه دوامُ الفقرِ إليه على جميعِ الأحوالِ، وملازمةُ السنَّةِ في جميعِ الأفعالِ، وطلبُ القوتِ من وجهٍ حلالٍ».

وقال بعضُهم: «الفقيرُ: الذي لا يرى لنفسِه حاجةً إلى شيءٍ من الأشياءِ سِوَى ربِّه تبارك وتعالى».

•• جملةُ نعتِ الفقيرِ

فجملةُ نعتِ الفقيرِ حقًّا أنه المتخَلِّي من الدنيا تظرُّفًا، والمتجَافي عنها تعفُّفًا، لا يستغني بها تكثُّرًا، ولا يستكثِرُ منها تملُّكًا. وإن كان مالكًا لها بهذا الشرطِ لم تضرَّه.

ومن نعتِه : أنه يعملُ على موافقةِ الله في الصبرِ والرِّضى والتوكلِ والإنابةِ، فهو عاملٌ على مرادِ الله منه لا على موافقةِ هواه، وهو تحصيلُ مرادِه من الله. خاضعٌ متواضعٌ، سليمُ القلبِ، سلسُ القيادِ للحقِّ، سريعُ القلبِ إلى ذكرِ اللهِ، بريءٌ من الدعاوَى لا يدَّعي بلسانِه ولا بقلبِه ولا بحالِه. زاهدٌ في

كلِّ ما سوى اللهِ، راغبٌ في كلِّ ما يقربُ إلى الله.

من جالسَه قرَّتْ عينُه به، ومن رآهُ ذكَّرتْه رؤيتُه بالله. قد حَمَلَ كَلَّه ومؤنتَه عن الناسِ، واحتَمَل أذاهم، وكفَّ أَذَاه عنهم. وبذلَ لهم نصيحتَه، وسبَّل لهم عرضَه ونفسَه لا لمعاوضَةٍ ولا لِذِلَّةٍ وعجزٍ. لا يدخلُ فيما لا يعنيه، ولا يبخلُ بما لا ينقصُه.

وصْفُه الصدقُ والعفةُ والإيثارُ والتواضعُ والحلمُ والوقارُ والاحتمالُ.

مقبلٌ على شأنِه، مكرمٌ لإخوانِه، بخيلٌ بزمانِه، حافظٌ للسانِه، مسافرٌ في ليلِه ونهارِه، ويقظتِه ومنامِه، لا يضعُ عصا السيرِ عن عاتقِه حتى يصلَ إلى مطلبِه.

•• قاعدةٌ شريفةٌ عظيمةُ القدرِ:

حاجةُ العبدِ إليها أعظمُ من حاجتِه إلى الطعامِ والشرابِ والنفَسِ، بل وإلى الروحِ التي بين جَنْبيهِ .

اعلم أن كلَّ حيٍّ سوى الله فهو فقيرٌ إلى جلْبِ ما ينفعُه ودفعِ ما يضرُّه، والمنفعةُ للحيِّ من جنسِ النعيمِ واللذةِ، والمضرَّةُ من جنسِ الألمِ والعذابِ. فلا بُد له من أمرينِ: أحدُهما : هو المطلوبُ المقصودُ المحبوبُ الذي ينتفعُ ويلتذُّ به، والثاني : هو المعينُ الموصلُ المحصِّلُ لذلك المقصودِ، والمانعُ لحصولِ المكروهِ، أو الدافعُ له بعدَ وقوعِه.

• **فهاهنا أربعةُ أشياءٍ:** أمرٌ محبوبٌ مطلوبُ الوجودِ، والثاني: أمرٌ مكروهٌ مطلوبُ العَدَمِ، والثالثُ: الوسيلةُ إلى حصولِ المحبوبِ، والرابع: الوسيلةُ

إلى دفْعِ المكروهِ. فهذه الأمورُ الأربعةُ ضروريةٌ للعبدِ، بل ولكلِّ حيٍّ سوى اللهِ، لا يقومُ صلاحُه إلا بها.

إذا عُرفَ هذا فاللهُ سبحانه وتعالى هو المطلوبُ المعبودُ المحبوبُ وحدَه لا شريكَ له، وهو وحدَه المعينُ للعبدِ على حصولِ مطلوبِه، فلا معبودَ سواه، ولا معينَ على المطلوبِ غيرُه؛ وما سواه هو المكروهُ المطلوبُ بُعدُه، وهو المعينُ على دفعِه. فهوسبحانه الجامعُ للأمورِ الأربعةِ دونَ ما سواه، وهذا معنى قول العبد:﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥].

إذا عُرف هذا فاعلمْ أن حاجةَ العبدِ إلى أن يعبدَ اللهَ وحدَه، ولا يشركُ به شيئًا في محبتِه، ولا في خوفِه، ولا في رجائِه، ولا في التوكلِ عليه، ولا في العملِ له، ولا في الحَلِفِ به، ولا في النذرِ له، ولا في الخضوعِ له، ولا في التذللِ والتعظيمِ والسجودِ والتقربِ أعظمُ من حاجةِ الجسدِ إلى روحِه، والعينِ إلى نورِها.

• **وهذا مبنيٌّ على أصلينِ، أحدُهما:** أن نفسَ الإيمانِ باللهِ، وعبادتِه، ومحبتِه، وإخلاصِ العملِ له، وإفرادِه بالتوكلِ عليه هو غذاءُ الإنسانِ وقوتُه وصلاحُه وقوامُه؛ كما عليه أهلُ الإيمانِ، وكما دلَّ عليه القرآنُ؛ لا كما يقولُه من يقولُ إن عبادتَه تكليفٌ ومشقةٌ على خلافِ مقصودِ القلبِ ولذَّتِه.

• **الأصلُ الثاني:** أن كمالَ النعيمِ في الدارِ الآخرةِ أيضًا به تعالى: رؤيتِه، وسماعِ كلامِه، وقربِه، ورضوانِه؛ لا كما يزعمُ من يزعمُ أنه لا لذَّةَ في الآخرةِ إلا بالمخلوقِ من المأكولِ والمشروبِ والملبوسِ والمنكوحِ. بل اللذةُ والنعيمُ التامُّ في حَظِّهم من الخالقِ تعالى أعظمُ مما يخطرُ بالبالِ أو يدورُ في الخيالِ.

وفي دعاءِ النبيِّ ﷺ: **«وأسألك لذَّةَ النظر إلى وجهِك، والشوقَ إلى لقائِك، في غيرِ ضرَّاءَ مضرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضلَّةٍ»**[1]. ولهذا قال تعالى في حقِّ الكفارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين:١٥-١٦].

وهذانِ الأصلانِ ثابتانِ بالكتابِ والسنةِ، وعليهما أهلُ العلمِ والإيمانِ، وعليهما أهلُ السنةِ والجماعةِ، وهما من فطرةِ الله التي فطرَ الناسَ عليها، ويحتجّونَ على من ينكرُهما بالنصوصِ والآثارِ تارةً، وبالذوْقِ والوجْدِ تارةً، وبالفطرةِ تارةً، وبالقياسِ والأمثالِ تارةً.

والقرآنُ مملوءٌ من ذكرِ حاجةِ العبادِ إلى الله دونَ ما سِواه، ومن ذكرِ نعمائِه عليهم، ومن ذكرِ ما وعَدَهم به في الآخرةِ من صنوفِ النعيمِ واللذاتِ، وليس عند المخلوق شيءٌ من هذا. فهذا الوجهُ يحقِّقُ التوكلَ على الله، والشكرَ له، ومحبتَه على إحسانِه.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١-٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس:٧٤-٧٥].

إذا تبيَّن هذا ظهرَ أن أحدًا من المخلوقينَ لا يقصِدُ منفعتَك بالقصدِ الأولِ، بل إنما يقصِدُ منفعته بك، وقد يكونُ عليك في ذلك ضررٌ إذا لم يراعِ

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥). والنسائي في الكبرى (١٢٢٩).

المحبُّ العدلَ، فإذا دعوتَه فقد دعوتَ من ضَرُّه أقربُ من نفعِه. وأما الربُّ تبارك وتعالى فهو يريدُك لك ولمنفعَتِك لا لِينتفعَ بك، وذلك منفعةٌ لك محضةٌ لا ضررَ فيها.

ولا يحمِلَنَّك هذا على جفوةِ الناسِ، وتركِ الإحسانِ إليهم واحتمالِ أذاهم، بل أحسِنْ إليهم لله لا لرجَائِهم، فكما لا تخافْهم فلا ترجُهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن:١٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩].

فالسعيدُ الرابحُ من عاملَ اللهَ فيهم، ولم يعامِلْهم في الله. وخافَ اللهَ فيهم، ولم يَخفْهم في الله وأرضَى اللهَ بسخَطِهم، ولم يُرضِهم بسخطِ الله. وراقَبَ اللهَ فيهم، ولم يراقِبْهم في الله وآثرَ اللهَ عليهم، ولم يُؤْثِرْهم على الله. وأماتَ خوفَهم ورجاءَهم وحبَّهم من قلبِه، وأحيا حبَّ الله وخوفَه ورجاءَه فيه. فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكونُ معاملتُه لهم كلُّها ربحًا، بشرطِ أن يصبِرَ على أذَاهم، ويتخذَه مغنمًا لا مغرمًا، وربحًا لا خُسرانًا.

ومما يوضحُ الأمرَ أن الخلقَ لا يقدرُ أحدٌ منهم أن يدفَع عنك مضرَّةً البتةَ، إلا بإذنِ الله ومشيئتِه وقضائِه وقَدَرِه. فهو في الحقيقةِ الذي لا يأتي بالحسناتِ إلا هو، ولا يذهَبُ بالسيئاتِ إلا هو: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس:١٠٧].

قال النبيُّ ﷺ لعبدِ الله بنِ عباسٍ: «**واعلمْ أن الخليقةَ لو اجتَمعوا على أن ينفعوكَ لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ كتبَه اللهُ لك، ولو اجتَمَعوا على أن يضُرُّوك لم يضُرُّوك إلا بشيءٍ كتبَه اللهُ عليك**»[1].

وإذا كانتْ هذه حالُ الخليقةِ، فتعليقُ الخوفِ والرجاءِ بهم ضارٌّ غيرُ نافعٍ.

وجِماعُ هذا أنك إذا كنتَ غيرَ عالمٍ بمصلحتِك، ولا قادرٍ عليها، ولا مريدٍ لها كما ينبغي، فغيرُك أوْلَى أن لا يكونَ عالمًا بمصلحتِك، ولا قادرًا عليها، ولا مريدًا لها. والله سبحانَه هو يعلمُ ولا تعلمُ، ويقدرُ ولا تقدرُ، ويعطيك مِن فضلِه لا لمعاوضةٍ ولا لمنفعةٍ يرجُوها منك، ولا لتكثُّرٍ بك، ولا لتعزُّزٍ بك؛ ولا يخافُ الفقْرَ، ولا تنقصُ خزائنُه على سَعَةِ الإنفاقِ. ولا يحبِسُ فضلَه عنك لحاجةٍ منه إليه واستغناءً به، بحيثُ إذا أخرجَه أثَّر ذلك في غِناه.

وهو يحبُّ الجودَ والبذلَ والعطاءَ والإحسانَ أعظمَ ممَّا تحبُّ أنت الأخذَ والانتفاعَ بما سألتَه، فإذا حَبَسَه عنك فاعلمْ أن هناك أمرينِ لا ثالثَ لهما:

أحدهما: أن تكونَ أنت الواقفُ في طريقِ مصالِحك، وأنت المعوِّقُ لوصولِ فضلِه إليك، وأنت حَجَرٌ في طريقِ نفسِك. وهذا الأمرُ هو الأغلبُ على الخليقةِ، فإنَّ اللهَ سبحانَه قَضَى فيما قَضَى به أن ما عنده لا يُنالُ إلا بطاعتِه، وأنه ما استُجْلِبتْ نعمُ الله بغيرِ طاعتِه، ولا استُديمَتْ بغيرِ شكرِه، ولا عُوِّقتْ وامتُنِعَتْ بغيرِ معصيتِه. وكذلك إذا أنعَمَ عليك ثم سَلَبَك النعمةَ فإنَّه

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦) وصححه.

لم يسلبْها لبخلٍ منه ولا استئثارٍ بها عليك، وإنما أنت السببُ في سلْبِها عنك، فإن اللهَ لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسِهم.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:٥٣].

فما أُزيلتْ نعمُ اللهِ بغيرِ معصيتِه:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَهَا فإنَّ الذنوبَ تُزيلُ النِّعَم

فآفتُك من نفسِك، وبلاؤُك منك، وأنت في الحقيقةِ الذي بالغتَ في عداوتِك، وبلغتَ من معاداةِ نفسِك ما لا يبلغُ العدوُّ منك، كما قيل:

ما يبلغُ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ من نفسِهِ

ومن العجبِ أن هذا شأنُك مع نفسِك، وأنت تشكُو المحسنَ البريءَ عن الشكايةِ، وتتهمُ أقدارَه وتعاتبُها وتلومُها. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠].

فإن أصْرَرْتَ على اتهامِ القدَرِ، وقلتَ: فالسببُ الذي أُصبتُ به، وأُتيتُ منه، ودُهيتُ منه، قد سبقَ به القدَرُ والحُكْمُ، وكان في الكتاب مسطورًا، فلا بُد منه على الرغْمِ منِّي. وكيف لي أن أنفكَّ منه، وقد أُودع الكتابَ الأولَ قبلَ بدءِ الخليقةِ، والكتابَ الثاني قبلَ خُروجي إلى هذا العالم، وأنا في ظلماتِ الأحشاءِ.

■■■■■

•• الكلام عن القدر والقدرية

فالجوابُ أن هاهنا مقامَيْنِ: مقامُ إيمانٍ وهُدًى ونجاةٍ، ومقامُ ضلالٍ ورَدًى وهلاكٍ، زلَّت فيه أقدامٌ، فهَوَتْ بأصحابِها إلى دارِ الشقاءِ.

فأمَّا مقامُ الإيمانِ والهُدَى والنجاةِ فمقامُ إثباتِ القدرِ والإيمانِ به، وإسنادِ جميعِ الكائناتِ إلى مشيئةِ ربِّها وبارئِها وفاطرِها، وأنه ما شاء كان وإن لم يَشَأ الناسُ، وما لم يَشَأ لم يكنْ وإن شاءَه الناسُ.

وأمَّا المقامُ الثاني وهو مقامُ الضلالِ والرَّدَى والهلاكِ فهو الاحتجاجُ به على الله، وحملُ العبدِ ذنبَه على ربِّه، وتنزيهُ نفسِه الجاهلةِ الظالمةِ الأمَّارةِ بالسوءِ، وجعلُ أرحمِ الراحمينَ وأعدلِ العادلينَ وأحكمِ الحاكمينَ وأغنى الأغنياءِ أضرَّ على العبادِ من إبليسَ؛ كما صرَّح به بعضُهم، واحتجَّ عليه بما خَصَمَه فيه من لا تدحضُ حجَّتُه ولا تطاقُ مغالبتُه، حتَّى يقولَ قائلُ هؤلاءِ:

ألقاه في اليمِّ مكتوفًا وقال له ... إيَّـاكَ إيَّـاكَ أن تبتـلَّ بالمـاءِ

وصعدَ رجل يومًا على سطحِ دارٍ له، فأشرف على غلامٍ له يفجُرُ بجاريتِه، فنزلَ، وأخذَهما ليعاقِبَهما، فقال الغلامُ: إن القضاءَ والقدرَ لم يدعانا حتى فَعَلنا ذلك. فقال: لَعِلْمُك بالقضاءِ والقدرِ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ، أنت حرٌّ لوجهِ الله.

ورأى آخرُ رجلًا آخرَ يفجرُ بامرأتِه فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاءُ الله وقدرُه. فقال: الخِيرةُ فيما قضى الله! فلُقب بـ (الخيرةُ فيما قَضَى الله)، وكان إذا دُعِي به غضِبَ!

ومُرَّ بِلِصٍّ مقطوعِ اليدِ على بعضِ هؤلاءِ فقال: مسكينٌ، مظلومٌ، أجبَرَه على السرقةِ، ثم قَطَعَ يَدَه عليها!

وأراد رجلٌ من هؤلاءِ السفرَ، فودَّع أهلَه وبَكَى. فقيل له: استودِعْهم اللهَ، واستحْفِظْهم إياه. فقال: ما أخافُ عليهم غَيْرَه!

وقال بعضُ هؤلاءِ: زَنيةٌ أزنيها أحبُّ إليَّ من عبادةِ الملائكةِ. قيل: ولِمَ؟ قال: لعِلْمي بأن اللهَ قَضَاها عليَّ وقدَّرَها، ولم يقْضِها إلا والخِيرةُ لي فيها.

وقرأ قارئٌ بحضرةِ بعضِ هؤلاءِ: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، فقال: هو اللهُ منعه! ولو قال إبليسُ ذلك كان صادقًا، وقد أخطأ إبليسُ الحجةَ، ولو كنتُ حاضرًا لقلتُ: أنتَ منعتَه!

فيقالُ: اللهُ أكبرُ على هؤلاءِ الملاحدةِ أعداءِ الله حقًّا الذين ما قَدَروا اللهَ حقَّ قدْرِه، ولا عَرَفوه حقَّ معرفتِه، ولا عظَّموه حقَّ تعظيمِه، ولا نزَّهوه عمَّا لا يليقُ به، وبغَّضُوه إلى عبادِه وبغَّضوهم إليه سبحانَه، وأساؤوا الثناءَ عليه جُهْدَهم وطاقتَهم.

وهؤلاءِ خصماءُ اللهِ حقًّا الذين جاء فيهم الحديثُ: «**يُقال يومَ القيامةِ: أينَ خصماءُ اللهِ؟ فيؤمرُ بهم إلى النَّارِ**»[1].

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ في تائيَّتِه:

ويُدعَى خصومُ اللهِ يومَ معادِهم	إلى النَّارِ طُرًّا فرقةُ القدريةِ
سواءٌ نفَوْه أو سَعَوْا ليُخاصِمُوا	به اللهَ أو مارَوا به للشريعةِ

(١) أخرجه اللالكائي (١٢٣٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وسمعتُه يقولُ: القدريةُ المذمومونَ في السنةِ، وعلى لسانِ السلفِ هم هؤلاءِ الفرقُ الثلاثةُ: نفاتُه، وهم القدريةُ المجوسيةُ. والمعارضونَ به للشريعةِ الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، وهم القدريةُ المشركيةُ. والمخاصمونَ به للربِّ، وهم أعداءُ الله وخصومُه، وهم القدريةُ الإبليسيةُ، وشيخُهم إبليسُ، وهو أولُ من احتجَّ على الله بالقَدَرِ فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف:١٦]، ولم يعترفْ بالذنبِ ويبوءُ به، كما اعترفَ به آدمُ. فمن أقرَّ بالذنبِ، وباء به، ونزَّه ربَّه، فقد أشْبَه أباه آدم، ومن أشْبَه أباه فما ظَلَم. ومن برَّأ نفسَه واحتجَّ على ربِّه بالقدرِ فقد أشبه إبليسَ.

ولا ريبَ أن هؤلاءِ القدريةَ الإبليسيةَ والمشركيةَ شرٌّ من القدريةِ النفاةِ، لأن النفاةَ إنما نفوْهُ تنزيهًا للربِّ تعالى وتعظيمًا له أن يقدرَ الذنبَ ثم يلومُ عليه ويعاقبُ، ونزَّهوه أن يعاقبَ العبدَ على ما لا صُنعَ للعبدِ فيه البتةَ، بل هو بمنزلةِ طُولِه وقِصَرِه وسَوَادِه وبياضِه وحَوَلِه ونحوِ ذلك.

وأما القدريةُ الإبليسيةُ والمشركيةُ فكثيرٌ منهم منسلخٌ من الشرعِ، عدوٌّ لله ورسلِه، لا يُقرُّ بأمرٍ ولا نهيٍ. وتلك وراثةٌ عن شيوخِه الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف:٢٠].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس:٤٧].

فهذه أربعةُ مواضعَ في القرآنِ بيَّنَ سبحانَه فيها أن الاحتِجاجَ بالقدرِ من فعلِ المشركينَ المكذبينَ للرسلِ.

●● وقد افترقَ الناسُ في الكلامِ على هذه الآياتِ أربعَ فرقٍ:

• **الفرقةُ الأولى:** جعلتْ هذه الحجةَ حجةً صحيحةً، وأن للمحتجِّ بها الحجةَ على اللهِ.

• **الفرقةُ الثانيةُ:** جَعَلَتْ هذه الآياتِ حجةً لها في إبطالِ القضاءِ والقدرِ والمشيئةِ العامةِ.

• **الفرقةُ الثالثةُ:** آمنتْ بالقضاءِ والقدرِ، وأقرَّتْ بالأمرِ والنهيِ، ونزلوا كلَّ واحدٍ منزلتَه. فالقضاءُ والقدرُ يؤمنُ به ولا يُحتجُّ به، والأمْرُ والنهيُ يُمتثَلُ ويُطَاعُ. فالإيمانُ بالقضاءِ والقدرِ عندَهم من تمامِ التوحيدِ وشهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ، والقيامُ بالأمرِ والنهيِ موجبُ شهادةِ أن محمدًا رسولُ اللهِ.

ثم افترقوا في وجْهِ هذه الآياتِ فرقتينِ:

فرقةٌ قالت: إنما أنكرَ عليهم استدلالَهم بالمشيئةِ العامةِ والقضاءِ والقدرِ على رضاه ومحبتِه لذلك.

وقد وافقَ هؤلاءِ من قال: إن اللهَ يحبُّ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ ويرضَى بها، ولكن خالفَهم في أنه نهى عنها وأمرَ بأضدادِها ويعاقبُ عليها، فوافقَهم في نصفِ قولِهم، وخالفَهم في الشرطِ الآخرِ.

وقالتِ الفرقةُ الثانيةُ: إنما أنكرَ عليهم معارضةَ الشرعِ بالقدرِ، ودفْعَ الأمرِ بالمشيئةِ. فلما قامتْ عليهم حجةُ الله، ولزِمَهم أمرُه ونهيُه دفَعوه بقضائِه وقدَرِه، فجعلوا القضاءَ والقدرَ إبطالًا لدعوةِ الرسلِ ودفعًا لما جاؤوا به.

وهدى اللهُ بفضْلِه ورثةَ أنبيائِه ورسلِه لميراثِ نبيِّهم وأصحابِه، فلم يؤمنوا ببعضِ الكتابِ ويكفُروا ببعضٍ، بل آمنوا بقضاءِ الله وقدَرِه ومشيئتِه العامةِ النافذةِ، وأنه ما شاءَ اللهُ كان وما لم يشأْ لم يكنْ، وأنه مقلبُ القلوبِ ومصرِّفُها كيف أرادَ. وأنه هو الذي جعلَ المؤمنَ مؤمنًا، والمصلِّي مصليًا، والمتقي متقيًا. وجعلَ أئمةَ الهدَى يهدُون بأمرِه، وأئمةَ الضلالةِ يدعُون إلى النارِ. وأنه ألهم كلَّ نفسٍ فجورَها وتَقْواها، وأنه يَهْدِي من يشاءُ بفضلِه ورحمَتِه، ويضلُّ من يشاءُ بعدلِه وحكمتِه. وأنه هو الذي وفَّق أهلَ الطاعةِ لطاعتِه فأطاعُوه، ولو شاءَ لخذَلهم فعصَوْه؛ وأنه حالَ بين الكفارِ وقلوبِهم، فإنه يحولُ بين المرءِ وقلبِه، فكفَروا به، ولو شاء لوفَّقَهم فآمنوا به وأطاعُوه، وأنه من يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له. وأنه لو شاءَ لآمنَ من في الأرضِ كلُّهم جميعًا إيمانًا يُثابونَ عليه، وَيقْبَلُ منهم، ويَرْضَى به عنهم. وأنه لو شاء ما اقتَتلوا، ولكنَّ الله يفعلُ ما يريدُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

•• مراتب القضاء والقدر عند وَرَثَةِ الرسُلِ

والقضاءُ والقدرُ عندهم أربعُ مراتب جاء بها نبيُّهم، وأخبر بها عن ربِّه:

- **الأولى:** علمُه السابقُ بما هم عامِلُوه قبل إيجادِهم.
- **الثانيةُ:** كتابَةُ ذلك في الذكرِ عندَه قبلَ خلقِ السمواتِ والأرضِ.
- **الثالثة:** مشيئتُه المتناولةُ لكلِّ موجودٍ، فلا خروجَ لكائنٍ عن مشيئتِه، كما لا خروجَ له عن علمِه.
- **الرابعةُ:** خَلْقُه له وإيجادُه وتكوينُه، فإنه لا خالقَ إلا اللهُ، واللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ، فالخالقُ عندَهم واحدٌ، وما سواهُ فمخلوقٌ، ولا واسطةَ عندَهم بين الخالقِ والمخلوقِ.

ويؤمنونَ مع ذلك بحكمتِه، وأنه حكيمٌ في كلِّ ما فَعَلَه وخَلَقَه، وهذه الحكمةُ هي الغايةُ، والفعلُ وسيلةٌ إليها، فإثباتُ الفعلِ مع نَفْيِها إثباتٌ للوسائلِ ونفيٌ للغاياتِ وهو مُحالٌ، إذ نفيُ الغايةِ مستلزِمٌ لنفي الوسيلةِ، فنفيُ الوسيلةِ ـ وهي الفعلُ ـ لازمٌ لنفيِ الغايةِ وهي الحكمةُ. ونفيُ قيامِ الفعلِ والحكمةِ به نفيٌ لهما في الحقيقةِ، إذ فعلٌ لا يقومُ بفاعِلِه وحكمةٌ لا تقومُ بالحكيمِ شيءٌ لا يُعقلُ. وذلك يستلزمُ إنكارَ ربوبيتِه وإلهيتِه. وهذا لازمٌ لمن نَفَى ذلك، لا محيدَ له عنه وإن أبَى التزامَه.

وأما من أثبتَ حكمتَه وأفعالَه على الوجهِ المطابقِ للعقلِ والفطرةِ وما جاءتْ به الرسلُ لم يلزمْ من قولِه محذورٌ البتةَ، بل قولُه حقٌّ، ولازمُ الحقِّ حقٌّ كائنًا ما كانَ.

والمقصودُ: أن ورثةَ الرسلِ وخلفاءَهم - لكمالِ ميراثِهم لنبيِّهم - آمنوا بالقضاءِ والقدرِ والحِكَمِ والغاياتِ المحمودةِ في أفعالِ الربِّ وأوامرِه، وقاموا مع ذلك بالأمرِ والنهيِ، وصدَّقوا بالوعدِ والوعيدِ.

والقضاءُ والقدرُ منشؤُه عن علمِ الربِّ وقُدرتِه، ولهذا قال الإمامُ أحمدُ: «القدرُ قدرةُ الله»[1]. واستحسَنَ ابنُ عقيلٍ هذا الكلامَ من أحمدَ غايةَ الاستحسانِ، وقالَ: إنه شَفَى بهذهِ الكلمةِ وأفصَحَ بها عن حقيقةِ القدرِ.

ولهذا كان مصدرُ الخلقِ والأمرِ والقضاءِ والشرعِ عن علمِ الربِّ وعزَّتِه وحكمتِه، ولهذا يقرنُ تعالى بين الاسمينِ والصفتينِ من هذه الثلاثِ كثيرًا كقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١]. وقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر:١-٢].

وقال في حم فُصِّلَت بعد ذكرِ تخليقِ العالمِ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت:١٢]. وذكرَ نظيرَ هذا في الأنعامِ، فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

فارتباطُ الخلقِ بقدرتِه التامَّةِ يقتضي أن لا يخرجَ موجودٌ عن قدرتِه، وارتباطُه بعلمِه التامِّ يقتضي إحاطتَه به وتقدمَه عليه، وارتباطُه بحكمتِه يقتضي وقوعَه على أكملِ الوجوهِ وأحسنِها، واشتمالِه على الغايةِ المحمودةِ المطلوبةِ للربِّ تعالى. وكذلك ارتباطُ أمرِه بعلمِه وحكمتِه وعزَّتِه، فهو عليمٌ بخلقِه وأمرِه، حكيمٌ في خلقِه وأمرِه، عزيزٌ في خلقِه وأمرِه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠٨).

ولهذا كان الحكيمُ من أسمائِه الحسنى، والحكمةُ من صفاتِه العُلَى. والشريعةُ الصادرةُ عن أمرِه مبناها على الحكمةِ، والرسولُ المبعوثُ بها مبعوثٌ بالكتابِ والحكمةِ. والحكمةُ هي سنةُ الرسولِ ﷺ، وهي تتضمنُ العلمَ بالحقِّ، والعملَ به، والخبرَ عنه، والأمرَ به؛ فكلُّ هذا يُسَمَّى (حكمةً). وفي الأثرِ: «الحكمةُ ضالّةُ المؤمنِ»[1]. وفي الحديثِ: «**إن من الشعرِ حكمةً**»[2].

فكما لا يخرجُ مقدورٌ عن علمِه وقدرتِه ومشيئتِه، فهكذا لا يخرجُ عن حكمتِه وحمدِه. وهو محمودٌ على جميعِ ما في الكونِ من خيرٍ وشرٍّ حمدًا استحقَّه لذاتِه، وصدَر عنه خلقُه وأمرُه. فمصدرُ ذلك كلِّه عن الحكمةِ، فإنكارُ الحكمةِ إنكارٌ لحمدِه في الحقيقةِ.

وإنما يتبينُ هذا ببيانِ وجودِ الحكمةِ في كلِّ ما خلَقَه اللهُ وأمَر به، وبيانِ أنه كلَّه خيرٌ من جِهَةِ إضافتِه إليه سبحانَه، وأنه من تلك الإضافةِ خيرٌ وحكمةٌ، وأن جهةَ الشرِّ منه من جهةِ إضافتِه إلى العبدِ، كما قال النبيُّ ﷺ في دعاءِ الاستفتاحِ: «**لبَّيك وسعْدَيْك، الخيرُ في يدَيْك، والشرُّ ليس إليك**»[3].

فهذا النفي يقتضي امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه، فلا يضافُ إلى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله.

وتحقيقُ ذلك أن الشرَّ ليسَ هو إلا الذنوبَ وعقوبَتها، كما في خطبتِه ﷺ: «**الحمدُ لله، نستعينُه، ونستغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا، ومن**

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩).
(٢) رواه البخاري (٦١٤٥).
(٣) رواه مسلم (٧٧١).

سيئاتِ أعمالِنا»[1]. فتضمَّنَ ذلك الاستعاذةَ من شرورِ النفوسِ، ومن سيئاتِ الأعمالِ وهي عقوباتُها.

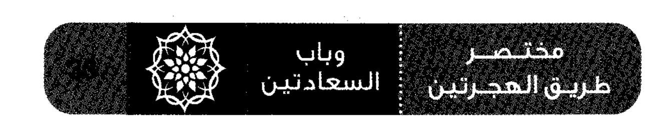
فذاتُ الربِّ تعالى مستلزمةٌ للحكمةِ والخيرِ والجودِ، وذاتُ العبدِ مستلزمةٌ للجهلِ والظلمِ، وما فيه من العلمِ والعدلِ فإنما حصلَ له بفضلِ اللهِ عليه، وهو أمرٌ خارجٌ عن نفسِه.

وأيضًا فإنَّ هذا الفضلَ هو توفيقُه وإرادتُه من نفسِه أن يلطفَ بعبدِه، ويوفِّقَه، ويعينَه، ولا يخلِّي بينَه وبين نفسِه؛ وهذا محضُ فعلِه وفضْلِه، وهو سبحانه أعلمُ بالمحلِّ الذي يصلحُ لهذا الفضلِ، ويليقُ به، ويثمرُ فيه، ويزكو به.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]، فأخبر سبحانَه أنه أعلمُ بمن يعرفُ قدْرَ هذه النعمةِ ويشكرُه عليها.

فلا بُد في الشكرِ من علمِ القلبِ، وعملٍ يتبعُ العلمَ، وهو الميلُ إلى المنعمِ ومحبتُه والخضوعُ له، كما في صحيحِ البخاريِّ عن شدَّادِ بن أوسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«سيِّدُ الاستغفارِ أن يقولَ العبدُ: اللهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت، خلقْتَني وأنا عبدُك، وأنا على عَهْدِك ووعدِك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتِك عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفِرْ لي فإنه لا يغفِرُ**

(١) رواه أحمد (٣٧٢١، ٤١١٦)، وأبو داود (٢١١٨).



الذنوبَ إلا أنت. من قالها إذا أصبحَ موقنًا بها فماتَ من يومِه دخلَ الجنةَ، ومن قالَها إذا أمسَى موقنًا بها فماتَ من ليلتِه دخلَ الجنةَ».

فقولُه: «**أبوءُ لك بنعمتك عليَّ**» يتضمنُ الإقرارَ والإنابةَ إلى الله بعبوديتِه، فإن المباءةَ هي التي يبوءُ إليها الشخصُ، أي يرجِعُ إليها رجوعَ استقرارٍ، والمباءةُ هي المستقرُّ. ومنه قولُه ﷺ: «**من كَذَبَ عليَّ متعمدًا فليتبوَّأْ مقعدَه من النارِ**»[1]، أي ليتَّخِذَ مقعدَه من النارِ مباءةً يلزمُه ويستقرُّ فيه، لا كالمنزلِ الذي ينزلُه ثم يرحلُ عنه.

فالعبدُ يبوءُ إلى الله عزَّ وجلَّ بنعمتِه عليه، ويبوءُ بذنبِه، فيرجعُ إليهِ بالاعترافِ بهذا وبهذا، رَجوعَ مطمئنٍّ إلى ربِّه منيبٍ إليه، ليس رجوعَ من أقبلَ عليه ثم أعرضَ عنه، بل رجوعَ من لا يُعرضُ عن ربِّه، بل لا يزالُ مقبلًا عليه، إذ كان لا بدَّ له منه. فهو معبودُه، وهو مستعانُه، لا صلاحَ له إلا بعبادتِه، فإن لم يكن معبودُه هلك وفَسَد، ولا يمكنُ أن يعبدَه إلا بإعانتِه. وفي الحديثِ: «**مَثَلُ المؤمنِ مثلُ الفرسِ في آخيتِه**[2]**: يجولُ ثم يرجِعُ إلى آخيتِه. كذلك المؤمنُ يجولُ ثم يرجِعُ إلى الإيمانِ**»[3].

فقولُه: «**أبوءُ**» يتضمَّنُ أني وإن جُلتُ كما يجولُ الفرسُ ـ إما بالذنبِ وإما بالتقصيرِ في الشكرِ ـ فإني راجعٌ منيبٌ أوَّابٌ إليك، رجوعَ من لا غِنًى له عنك.

---

(١) رواه البخاري (١١٠)، ومسلم في المقدمة (٣).

(٢) الآخية بالمد والتشديد، ويجوز بالتخفيف: العروة تشد بها الدابة مثنية في الأرض. قاله أبو عبيد. اللسان (أخا).

(٣) رواه أحمد (١٥٢٦)، وابن حبان (٦١٦).

وذِكَر النعمةَ والذنبَ لأن العبدَ دائمًا يتقلبُ بينهما، فهو بيَن نعمةٍ من ربِّه وذنبٍ منه هو، كما في الأثر الإلهي: «ابنَ آدمَ خيري إليك نازلٌ، وشرُّك إليَّ صاعِدٌ. كم أتحبَّبُ إليك بالنِّعَمِ، وأنا غنيٌّ عنك! وكم تتبَغَضُ إليَّ بالمعاصي، وأنت فقيرٌ إليَّ! ولا يزالُ الملَكُ الكَريمُ يعرُج إليَّ منك بعملٍ قبيحٍ»[1].

فالخيرُ كلُّه من اللهِ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات:٧-٨].

فالنِّعَمُ كلُّها ـ من نِعَمِ الدِّينِ والدنيا، وثوابِ الأعمالِ في الدنيا والآخرةِ ـ من نِعَمِ الله ومَنِّه وفضلِه على عبدِه. وهو تعالى وإن كان أجودَ الأجودينَ وأرحمَ الراحمينَ وأكرمَ الأكرمينَ، فإنه أحكمُ الحاكمينَ وأعدلُ العادلينَ، لا يضعُ الأشياءَ إلا في مواضِعِها اللائقةِ بها، ولا يناقضُ جودُه ورحمتُه وفضلُه حِكْمتَه وعدلَه.

قال عبدُ الله بنُ مسعودٍ: «إن اللهَ تعالى نظرَ في قلوبِ العبادِ، فرأي قلبَ محمدٍ ﷺ خيرَ قَلوبِ أهلِ الأرضِ، فاختَصَّه برسالتِه. ثم نَظَر في قلوبِ العبادِ، فرأى قلوبَ أصحابِه خيرَ قلوبِ العبادِ، فاختارَهم لصحبتِه»[2]. وفي أثرٍ إسرائيليٍّ: «أن اللهَ تعالى قال لموسى: أتدري لم اخترتُك لكلامي؟ قال:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣١) عن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب فوجدت الله تعالى يقول:..

(٢) رواه أحمد (٣٦٠٠).

لا يا ربِّ. قال: لأني نظرتُ في قلوبِ العبادِ، فلم أر فيها أخضعَ من قلبِك لي»[1]. أو نحو هذا.

كما في الصحيحِ من حديثِ أبي موسَى عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به من الهُدَى والعلمِ كمثلِ غيثٍ أصابَ أرضًا، فكان منها طائفةٌ طيبةٌ قَبِلَتِ الماءَ، فأنبتتِ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ. وكان منها طائفةٌ أجادبُ أمسكتِ الماءَ، فسَقَى الناسُ وزرَعوا. وأصابَ منها طائفةً أخرى إنما هي قيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كلأً. فذلك مثل من فقُه في دينِ الله ونفعَه بما بعثني اللهُ به، ومثلُ من لم يرفَعْ بذلك رأسًا ولم يقبَلْ هُدَى الله الذي أُرسَلتُ به**»[2].

والمقصودُ: أن اللهَ سبحانَه أعلمُ بمواقعِ فضلِه ورحمتِه وتوفيقِه، ومن يصلحُ لها ممن لا يصْلُحُ، وأن حكمتَه تأبى أن تضَعَ ذلك عند غيرِ أهلِه، كما تأبى أن تمنَعَه من يصلحُ له. وهو سبحانَه الذي جعلَ المحلَّ صالحًا وجعله أهلًا وقابلًا، فمنه الإعدادُ والإمدادُ، ومنه السببُ والمسبَّبُ.

ومن اعترضَ بقولِه: فهلَّا جعلَ المحالَّ كلها كذلك، وجعلَ القلوبَ على قلبٍ واحدٍ! فهو من أجهلِ الناسِ وأضلِّهم وأسفَهِهم، وهو بمنزلةِ من يقولُ: لم خلقَ الأضدادَ، وهلَّا جَعَلَها كلَّها شيئًا واحدًا! وهل يسمحُ خاطرُ من له أدنى مُسكةٍ من عقْلٍ بمثلِ هذا السؤالِ الدَّالِّ على حُمْقِ سائلِه وفسادِ عقلِه؟ وهل ذلك إلا موجبُ ربوبيتِه وإلهيتِه ومُلكِه وقُدرتِه ومشيئتِه وحكمتِه، ويستحيلُ أن يتخَلَّفَ موجبُ صفاتِ كمالِه عنها.

---

(١) نقل الذهبي نحو هذا عن وهب بن منبه في سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٩٨).
(٢) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

وهل حقيقةُ الملكِ إلا بإكرامِ الأولياءِ وإهانةِ الأعداءِ؟ وهل تمامُ الحكمةِ وكمالِ القدرةِ إلا بخلقِ المتضاداتِ والمختلفاتِ، وترتيبِ آثارِها عليها، وإيصالِ ما يليقُ بكلٍّ منها إليه؟ وهل ظهورُ آثارِ أسمائِه وصفاتِه في العالمِ إلا من لوازمِ ربوبيتِه وملكِه؟ فهل يكونُ رزَّاقًا وغفَّارًا وعفوًا ورحيمًا وحليمًا، ولم يوجَدْ من يرزقُه، ولا من يغفِرُ له، ويعفُو عنه، ويحلمُ عنه، ويرحمُه؟ وهل انتقامُه إلا من لوازمِ ربوبيتِه ومُلكِه؟ فَمِمَّنْ ينتقمُ إن لم يكن له أعداءٌ ينتقمُ منهم، ويُرِي أولياءَه كمالَ نعمتِه واختصاصِه إيَّاهم دونَ غيرِهم بكرامتِه وثوابِه؟

وهل في الحكمةِ الإلهيةِ تعطيلُ الخيرِ الكثيرِ لأجلِ شرٍّ جُزْئِيٍّ يكونُ من لوازمِه؟ فهذا الغيثُ الذي يُحيِي اللهُ به البلادَ والعبادَ والشجرَ والدوابَّ، كم يحبسُ من مسافرٍ، ويمنعُ من قُصَّادٍ، ويهدمُ من بناءٍ، ويعوقُ عن مصلحةٍ؟ ولكن أين هذا مما يحصلُ به من المصالحِ؟ وهل هذه المفاسدُ في جنبِ مصالحِه إلا كتفلةٍ في بحرٍ؟ وهل تعطيلُه لئلا تحصلَ به هذه المفاسدُ إلا موجِبًا لأعظمِ المفاسدِ والهلاكِ؟

وبهذا ونحوِه يُعرفُ كمالُ القدرةِ وكمالُ الحكمةِ. فكمالُ القدرةِ بخلقِ الأضدادِ، وكمالُ الحكمةِ بتنزيلِها منازلَها ووضعِ كلٍّ منها في موضِعِه. والعالمُ من لا يُلقي الحربَ بين قدرةِ الله وحكمتِه، فإن آمنَ بالقدرةِ قَدَحَ في الحكمةِ وعطَّلها، وإن آمنَ بالحكمةِ قَدَحَ في القدرةِ ونَقَضَها؛ بل يربطُ القدرةَ بالحكمةِ، ويعلمُ شمولَها لجميعِ ما خلقَه اللهُ ويخلقُه، فكما أنه لا يكونُ إلا بقدرتِه ومشيئتِه، فكذلك لا يكونُ إلا بحكمتِه.

وإذا كان لا سبيلَ للعقولِ البشريةِ إلى الإحاطةِ بهذا تفصيلًا، فيكفيها الإيمانُ بما تعلمُ وتشاهِدُ منه، ثمَّ تستدلُّ على الغائبِ بالشاهِدِ، وتعتبرُ ما عَلِمَتْ بما لم تَعْلَمْ. وقد ضربَ اللهُ سبحانه الأمثالَ لعبادِه في كتابِه، وبيَّن لهم ما في لوازمِ ما خَلَقَه لهم وأنزلَه عليهم من الغيثِ الذي به حياتُهم وأقواتُهم وحياةُ الأرضِ والدوابِّ، وما خلقَه لهم من الشرِّ المغمورِ بالإضافةِ إلى الخيرِ الحاصلِ بذلك، فقال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:١٧].

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٧-٢٠]. فهكذا حالُ كلِّ من قَصُرَ نظرُه في بعضِ مخلوقاتِ الربِّ تعالى على ما لا بدَّ منه من شرٍّ جزئيٍّ جدًا بالإضافةِ إلى الخيرِ الكثيرِ.

وما يحصلُ للنفسِ البشريةِ من الضررِ والأذى فله سبحانه في ذلك أعظمُ حكمةٍ مطلوبةٍ، وتلك الحكمةُ إنما تحصلُ على الوجْهِ الواقعِ المقدَّرِ بما خلقَ لها من الأسبابِ التي تُنالُ غاياتُها إلا بها، فوجودُ هذه الأسبابِ بالنسبةِ إلى الخالقِ الحكيمِ سبحانه هو من الحكمةِ.

ولهذا يقرنُ سبحانه في كتابِه بين اسمِه (الحكيم)، واسمِه (العليم) تارةً، وبينَه وبين اسمِه (العزيز) تارةً، كقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦، الأنفال:٧١]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٠، المائدة:٣٨]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨، ١٦٥، الفتح:٧، ١٩]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦]، فإن العزةَ تتضمنُ القوةَ، ولله القوةُ جميعًا.

فالعزةُ من جنسِ القدرةِ والقوةِ. وقد ثبتَ في الصحيحِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ»**(١).

فالقدرةُ إنْ لم تكنْ مَعها حكمةٌ، بل كان القادرُ يفعلُ ما يريدُه، بلا نظر في العاقبةِ، ولا حكمةٍ محمودةٍ يطلبُها بإرادتِه ويقصدُها بفعلِه، كان فعلُه فسادًا، كصاحبِ شهواتِ الغيِّ والظلمِ، الذي فعلَ بقوتِه ما يريدُه من شهواتِ الغَيِّ في بطنِه وفرجِه ومن ظلمِ الناسِ، فإن هذا وإن كان له قوةٌ وعزةٌ لكنْ لما لم يقترنْ بها حكمةٌ كان ذلك معونةً على شرِّه وفسادِه.

وكذلك العلمُ كمالُه أن يقترنَ به الحكمةُ، وإلا فالعلمُ الذي لا يريدُ ما تقتضيهِ الحكمةُ وتوجبُه، بل يريدُ ما يهواه سفيهٌ غاوٍ، فعلمُه عونٌ له على الشرِّ والفسادِ.

والمقصودُ أن العلمَ والقدرةَ المجرَّدَيْنِ عن الحكمةِ لا يحصلُ بهما الكمالُ والصَّلاحُ، وإنما يحصلُ ذلك بالحكمةِ معهما. واسمُه سبحانه (الحكيم)

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

يتضمنُ حكمتَه في خلقِهِ وأمرَهِ في إرادتِه الدينيةِ والكونيةِ، وهو حكيمٌ في كلِّ ما خلقَه، حكيمٌ في كلِّ ما أمرَ به.

•• **والناسُ في هذا المقامِ أربعُ طوائفٍ:**

• **الطائفةُ الأولى**: الجاحدةُ لقدرتِه وحكمتِه، فلا يُثبتونَ له تعالى قدرةً ولا حكمةً.

• **والطائفةُ الثانيةُ**: أقرَّتْ بقدرتِه وعمومِ مشيئتِه للكائناتِ، وجحدتْ حكمتَه وما له في خلقِه من الغاياتِ المحمودةِ المطلوبةِ له ـ سبحانه ـ التي يفعلُ لأجْلِها ويأمرُ لأجْلِها، فحافَظَتْ على القَدَرِ وجَحَدَتِ الحكمةَ.

• **والطائفةُ الثالثةُ**: أقرَّت بحكمتِه، وأثبتَتِ الأسبابَ والعللَ والغاياتِ في أفعالِه وأحكامِه، وجحدتْ كمالَ قدرتِه، فنفتْ قدرتَه على شَطْرِ العالمِ، وهو أشرفُ ما فيه من أفعالِ الملائكةِ والجنِّ والإنسِ وطاعتِهم. بل عندَهم هذه كلُّها لا تدخلُ تحتَ مقدورِه تعالى.

فهدَى الله الطائفةَ الرابعةَ لما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنِه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]، فآمنوا بالكتابِ كلِّه، وأقرّوا بالحقِّ جميعِه، ووافقوا كلَّ واحدةٍ من الطائفتينِ على ما معَها من الحقِّ، وخالفُوهم فيما قالوه من الباطلِ. فآمنوا بخلقِ الله وأمرِه بقَدَرِه وشَرْعِه، وأنه سبحانَه المحمودُ على خلقِه وأمرِه، وأن له الحكَمةَ البالغةَ والنعمةَ السابغةَ، وأنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ. فلا يخرجُ عن مقدورِه شيءٌ من الموجوداتِ أعيانِها وأفعالِها وصفاتِها، كما لا يخرجُ عن علمِه؛ فكلُّ ما تعلَّقَ به علمُه من العالمِ تعلَّقَتْ به قدرتُه ومشيئتُه .

وآمنوا مع ذلك بأن له الحجةَ على خلقِه، وأنه لا حجةَ لأحدٍ عليه بل لله الحجةُ البالغةُ، ولا يجعلونَ القَدَرَ حُجَّةً لأنفسِهم ولا لغيرِهم.

ويجمعُ هذين الأصلينِ العظيمينِ أصلٌ ثابتٌ هو عَقْدُ نظامِهما وجامعُ شَمْلِهما، وبتحقيقِه وإثباتِه على وجهِه يتم بناءُ هذين الأصلينِ، وهو: إثباتُ الحمدِ كلِّه لله ربِّ العالمينَ. فإنَّه المحمودُ على كلِّ ما خَلَقَه، وأمرَ به، ونهى عنه. فهو المَحمودُ على طاعاتِ العبادِ ومَعَاصِيهم، وإيمانِهم وكفرِهم. وهو المحمودُ على خَلْقِ الأبرارِ والفجارِ، والملائكةِ والشياطينَ، وعلى خلقِ الرسلِ وأعدائِهم. وهو المحمودُ على عدلِه في أعدائِه، كما هو المحمودُ على فضلِه وإنعامِه على أوليائِه.

فكلُّ ذرةٍ من ذراتِ الكونِ شاهدةٌ بحمدِه، ولهذا سبَّح بحمدِه السمواتُ السبعُ والأرضُ ومن فيهنَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، وكان من قولِ النبيِّ ﷺ عندَ الاعتدالِ من الركوعِ: «**ربَّنا ولك الحمدُ، ملءَ السَّمواتِ وملءَ الأرضِ، وملءَ ما بينَهما، وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعدُ**»[١]. فله سبحانَه الحمدُ حمدًا يملأُ المخلوقاتِ والفضاءَ الذي بين الأرضِ والسمواتِ، ويملأُ ما يُقَدَّر بعد ذلك مما يشاءُ الله أن يُمْلأَ بحمدِه.

وفي الدعاءِ المأثورِ: «**اللهُمَّ لك الحمدُ كلُّه، ولك الملكُ كلُّه، وبيدِك الخيرُ كلُّه، وإليك يُرْجَعُ الأمرُ كلُّه، أسألُك من الخيرِ كلِّه وأعوذُ بك من الشرِّ كلِّه**»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٤٧٧).

(٢) صحيح الجامع (١٢٧٦).

•• شمول الحمد والحكمة لكلّ شيءٍ

والمقصودُ بيانُ شمولِ حمدِه تعالى وحكمتِه لكلِّ ما يُحدِثُه من إحسانٍ ونعمةٍ، وامتحانٍ وبليةٍ، وما يَقْضِيه من طاعةٍ ومعصيةٍ، وأنه سبحانَه محمودٌ على ذلك مشكورٌ حمدَ المدحِ وحمدَ الشكرِ. أما حمدُ المدحِ فإنه محمودٌ على كلِّ ما خلقَ، إذ هو ربُّ العالمينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ. وأما حمدُ الشكرِ فلأن ذلك كلَّه نعمةٌ في حقِّ المؤمنِ إذا اقترنَ بواجبِه.

والإحسانُ والنعمةُ إذا اقترنَتْ بالشكرِ صارت نعمةً، والامتحانُ والبليةُ إذا اقترنَ بالصبرِ كان نعمةً. والطاعةُ فمِنْ أجلِّ نِعَمِهِ، وأما المعصيةُ فإذا اقترنتْ بواجِبِها من التوبةِ والاستغفارِ والإنابةِ والذلِّ والخضوعِ، فقد ترتَّبَ عليها من الآثارِ المحمودةِ والغاياتِ المطلوبةِ ما هو نعمةٌ أيضًا، وإن كان سببُها مسخوطًا مبغوضًا للربِّ تعالى، ولكنه يحبُّ ما ترتَّبَ عليها من التوبةِ والاستغفارِ.

وهو سبحانَه أفرحُ بتوبةِ عبدِه من الرجلِ إذا أضلَّ راحلتَه بأرضٍ دوِّيةٍ مُهْلِكَةٍ عليها طعامُه وشرابُه، فأيِسَ منها ومن الحياةِ، فنامَ، ثم استيقظَ، فإذا بها قد تعلَّقَ خطامُها في أصلِ شجرةٍ، فجاء حتى أخذَها فاللهُ أفرحُ بتوبةِ العبدِ حين يتوبُ إليه من هذا براحلتِه.

فهذا الفرحُ العظيمُ الذي لا يشبهُه شيء أحبُّ إليه سبحانَه من عدمِه، وله أسبابٌ ولوازمُ لا بدَّ منها. وما يحصلُ بتقديرِ عدمِه من الطاعاتِ وإن كان محبوبًا له، فهذا الفرحُ أحبُّ إليه بكثيرٍ، ووجودُه بدونِ لازمِه ممتنعٌ. فله من الحكمةِ في تقديرِ أسبابِه وموجباتِه حكمةٌ بالغةٌ ونعمةٌ سابغةٌ.

والمقصودُ أن تنويعَ المخلوقاتِ واختلافَها من لوازمِ الحكمةِ والربوبيةِ والملكِ، وهو أيضًا من موجباتِ الحمدِ، فله الحمدُ على ذلك كلِّه أكملَ حمدٍ وأتمَّه.

وأيضًا فإن مخلوقاتِه هي موجباتُ أسمائِه وصفاتِه، فلكلِّ اسمٍ وصفةٍ أثرٌ لا بدَّ من من ظهورِه فيه واقتضائِه له، فيمتنعُ تعطيلُ آثارِ أسمائِه وصفاتِه، كما يمتنعُ تعطيلُ ذاتِه عنها. وهذه الآثارُ لها متعلقاتٌ ولوازمُ يمتنعُ أن لا توجدَ، كما تقدمَ التنبيهُ عليه.

وأيضًا فإن حقيقةَ المُلك إنما تتمُّ بالعطاءِ والمنعِ، والإكرامِ والإهانةِ، والإثابةِ والعقوبةِ، والغضبِ والرضا، والتوليةِ والعزلِ، وإعزازِ من يليقُ به العزُّ وإذلالُ من يليقُ به الذلُّ. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

عن أبي الدرداءَ أنه سُئل عن قولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، فقال: سُئل عنها رسولُ الله ﷺ فقال: «من شَأْنِه أن يغفِرَ ذنبًا، ويُفَرِّجَ كربًا، ويرفَعَ قومًا، ويضَعَ آخرينَ»[1].

والمقصودُ أن الملكَ والحمدَ في حقِّه متلازمانِ، فكلُّ ما شمِلَه ملكُه وقدرتُه شملَه حمدُه، فهو محمودٌ في ملكِه، وله الملكُ والقدرةُ مع حمدِه. فكما

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٢)، وابن حبان (٦٨٩).

يستحيلُ خروجُ شيءٍ من الموجوداتِ عن ملكِه وقدرتِه، يستحيلُ خروجُها عن حمدِه وحكمتِه.

وقد نبَّه سبحانه على شمولِ حمدِه لخلقِه وأمرِه بأن حمدَ نفسَه في أولِ الخلقِ وآخرِه، وعند الأمرِ والشرعِ؛ وحمدَ نفسَه على ربوبيتِه للعالمينَ، وحمدَ نفسَه على تفردِه بالإلهيةِ وعلى حياتِه. وحمدَ نفسَه على امتناعِ اتصافِه بما لا يليقُ بكمالِه من اتخاذِ الولدِ والشريكِ وموالاةِ أحدٍ من خلقِه لحاجةٍ إليهِ. وحمدَ نفسَه على علوِّه وكبريائِه، وحمدَ نفسَه في الأولى والآخرةِ. وأخبر عن سريانِ حمدِه في العالمِ العلويِّ والسُّفْلِي. ونبَّه على هذا كلّه في كتابه، وحمدَ نفسَه عليه؛ فنوَّعَ حمدَه وأسبابَ حمدِه، وجمعَها تارةً، وفرَّقها أخرى، ليتعرفَ على عبادِه، ويعرفَهم كيف يحمدونَه وكيف يُثنونَ عليه، ولتحبب إليهم بذلك، ويحبَّهم إذا عرَفوه وأحبّوه وحَمدُوه.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤].

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠].

وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨].

فهذا تنبيهٌ على أحدِ نوعَي حمدِه، وهو حمدُ الصفاتِ والأسماءِ.

والنوع الثاني: حمدُ النعمِ والآلاءِ، وهذا مشهودٌ للخليقةِ: برِّها وفاجرِها، مؤمِنها وكافرِها؛ من جزيلِ مواهبِه، وسعةِ عطاياه، وكريمِ أَيَادِيه، وجميلِ صنائِعِه، وحُسْنِ معاملتِه لعبادِه، وسَعَةِ رحمتِه بهم، وبرِّه ولطفِه وحنانِه، وإجابتِه لدعواتِ المضطرينَ، وكشفِ كُرُباتِ المكروبينَ، وإغاثةِ الملهوفينَ، ورحمةِ العالمينَ، وابتدائِه بالنعمِ قبلَ السؤالِ ومن غيرِ استحقاقٍ، بل ابتداءً منه بمجردِ فضلِه وكرمِه وإحسانِه، ودفع المِحَنِ والبلايا بعدَ انعقادِ أسبابِها، وصرفِها بعدَ وقوعِها، ولطفِه تعالى في ذلك بإيصالِه إلى من أرادَه بأحسنِ الألطافِ، وتبليغِه من ذلك إلى ما لا تبلغُه الآمالُ، وهدايةِ خاصَّتِه وعبادِه إلى سُبلِ السلامِ، ومدافعتِه عنهم أحسنَ الدفاعِ، وحمايتِهم عن مراتعِ الآثامِ.

وحبَّبَ إليهم الإيمانَ، وزينَه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفْرَ والفسوقَ والعصيانَ، وجعلَهم من الرَّاشدينَ.

ومع هذا كلِّه فاتخذَ لهم دارًا، وأعدَّ لهم فيها من كلِّ ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّه الأعينُ، وملأَها من جميع الخيراتِ، وأودعَهَا من النعيم والحبرةِ والسرورِ والبهجةِ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ.

ثم أرسلَ إليهم الرسلَ يدعونَهم إليها، ثم يَسَّر لهم الأسبابَ التي تُوصِلُهم إليها وأعانهم عليها، ورَضِي منهم باليسيرِ في هذه المدةِ القصيرةِ جدًّا بالإضافةِ إلى بقاءِ دارِ النعيمِ.

وذكَّرهم بآلائِه، وتعرفَ إليهم بأسمائِه، وأمرهم بما أمرهم به رحمةً منه



بهم وإحسانًا، لا حاجةً منه إليهم، ونهاهم عمّا نهاهم عنه حمايةً وصيانةً لهم، لا بخلًا منه عليهم.

وخاطَبَهم بألطفِ الخطابِ وأحلَاه. كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٦-٧].

وأعلم عبادَه ـ سبحانه ـ أنه لا يرضَى لهم إلا أكرمَ الوسائلِ، وأفضلَ المنازلِ، وأجلَّ العلومِ والمعارفِ. قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

ومن أراد مطالعةَ أصولِ النعمِ فليُدم سرحَ الفكرِ في رياضِ القرآنِ، وليتأملْ ما عَدَّد اللهُ فيه من نعمِهِ، وتعرفَ بها إلى عبادِه من أولِ القرآنِ إلى آخرِه، حتى خَلْقَ النارِ، وابتلاءَهم بإبليسَ وحزبِه، وتسليطَ أعدائِهم عليهم، وامتحانَهم بالشهواتِ والإراداتِ والهوى؛ لتعظُمَ النعمةُ عليهم بمخالفتِها ومحاربةِ أعدائِه.

ومن اسْتَقْرَى الأسماءَ الحسْنَى وجدَها مدائحَ وثناءً تَقْصُرُ بلاغاتُ الواصفينَ عن بلوغِ كُنْهِها، وتعجزُ الأوهامُ عن الإحاطةِ بالواحدِ منها. ومع ذلك فللَّه سبحانَه محامدُ ومدائحُ وأنواعٌ من الثناءِ لم تتحركْ بها الخواطرُ، ولا هَجَسَتْ في الضمائرِ، ولا لاحتْ لمتوسِّمٍ، ولا سَنَحَتْ في فكرٍ. ففي دعاء أعرفِ الخلقِ بربِّه تعالى وأعلمِهم بأسمائِه وصفاتِه ومحامدِه: «**أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك، سميتَ به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابِك، أو علَّمته أحدًا من خلقِك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صَدْري، وجلاءَ حُزني، وذهابَ همِّي وغمِّي**»(١).

فلا يُحصِي أحدٌ من خلقِه ثناءً عليه البتةَ، وله أسماءٌ وأوصافٌ وحمدٌ وثناءٌ لا يعلمُه مَلَك مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ. ونسبةُ ما يعلمُ العبادُ من ذلك إلى ما لا يعلمونَه كنقرَةِ عصفورٍ في بحرٍ.

إذا ابتلى اللهُ عبدَه بشيءٍ من أنواعِ البلايا والمحنِ فإن ردَّه ذلك الابتلاءُ والامتحانُ إلى ربِّه، وجَمَعَه عليه، وطرحَه ببابِه، فهو علامةُ سعادتِه وإرادةِ الخيرِ به. وإن لم يردَّه ذلك البلاءُ إليه، بل شَرَّدَ قلبهَ عنه، وردّه إلى الخلقِ، وأنسَاه ذكرَ ربِّه، والضراعةَ إليه، والتذللَ بين يديْه، والتوبةَ والرجوعَ إليه؛ فهو علامةُ شقاوتِه وإرادةِ الشرِّ به. فهذا إذا أقلعَ عنه البلاءُ ردّه إلى حُكْمِ طبيعتِه، وسلطانِ شهوتِه، ومَرَحِه وفَرَحِه.

---

(١) رواه أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان (٩٧٢).

قاعدة

•• في مشاهدِ الناسِ في المعاصِي والذنوبِ

الناسُ في البلْوَى التي تَجْري عليهم أحكامُها بإرادَاتِهم وشهواتِهم متفاوتونَ ـ بحسَبِ شهودِهم لأسبابِها وغايتِها ـ أعظمَ تفاوتٍ. وجماعُ ذلك ثمانيةُ مشاهدَ:

• **أحدُها**: شهودُ السببِ الموصلِ إليها، والغايةِ المطلوبةِ منها فقط. وهو شهودُ الحيواناتِ، إذ لا تشهدُ إلَّا طريقَ قضاءِ وطَرِها، وبردَ النفسِ بعد تناوُلِها.

• **المشهدُ الثاني**: من يشهدُ مع ذلك مجردَ الحُكْمِ القَدَرِيِّ وجريانَه عليه، ولا يتجاوزُ شهودُه ذلك. وربما رأى أن الحقيقةَ هي توفيةُ هذا المشهدِ حقَّه، ولا يتمُّ له ذلك إلَّا بالفناءِ عن شهودِ فعلِه هو جملةً، فيشهدُ الفاعلَ فيه غيرَه والمحركَ له سواه، فلا ينسبُ إلى نفسِه فعلًا، ولا يرى لها إساءةً، ويزعمُ أن هذا هو التحقيقُ والتوحيدُ. كما قال قائلُهم في هذا المعنى:

أصبحتُ منفعلًا لما يختارُه ... مني ففعْلي كلُّه طاعاتُ

• **المشهدُ الثالثُ**: مشهدُ الفعلِ الكسبيِّ القائمِ بالعبدِ فقط، ولا يشهدُ إلا صدورَه عنه وقيامَه به، ولا يشهدُ مع ذلك مشيئةَ الربِّ له، ولا جريانَ حُكمِه القدريِّ به، ولا عزةَ الربِّ تعالى في قضائِه ونفوذِ أمرِه.

فهو لغيبتِه عن هذا المشهدِ، وغلبةِ شهودِ المعصيةِ والكسبِ على قلبِه، لا يعْطِي التوحيدَ حقَّه، ولا الاستعانةَ بربِّه والاستغاثةَ به واللجأَ إليه

والافتقارَ والتضرعَ والابتهالَ حقَّه، بحيثُ يشهدُ سرَّ قولِه ﷺ: «**أعوذُ برضَاك من سخطِك، وأعوذُ بعفوِك من عقوبتِك، وأعوذُ بك منك**»[1].

• **المشهدُ الرابع**: مشهدُ التوحيدِ والأمرِ، فيشهدُ انفرادَ الربِّ تعالى بالخلقِ، ونفوذِ مشيئتِه، وتعلقَ الموجوداتِ بأسرِها بها، وجَرَيانَ حكمِه على الخليقةِ، وانتهاءَها إلى ما سبقَ في علمِه، وجَرَى به قلمُه. ويشهدُ مع ذلك أمرَه ونهيَه وثوابَه وعقابَه، وارتباطَ الجزاءِ بالأعمالِ واقتضاءَها له، ارتباطَ المسبَّباتِ بأسبابِها، التي جُعِلت أسبابًا مقتضيةً له شرعًا وقدرًا وحكمةً.

فشهودُه توحيدَ الربِّ تعالى وانفرادَه بالخلقِ ونفوذَ مشيئتِه وجريانَ قضائِه وقدرِه يفتحُ له بابَ الاستعانةِ به ودوامَ الالتجاءِ إليه والافتقارِ إليه. وذلك يُدْنِيه من عَتَبةِ العبوديةِ، ويطرحُه بالبابِ فقيرًا عاجزًا مسكينًا، لا يملكُ لنفسِه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. وشهودُه أمرَه تعالى ونهيَه وثوابَه وعقابَه يوجبُ له الجِدَّ والتشميرَ، وبذلَ الوُسْعِ، والقيامَ بالأمرِ، والرجوعَ على نفسِه باللومِ والاعترافِ بالتقصيرِ. فيكونُ سيرُه بينَ شهودِ العزَّةِ والحكمةِ والقدرةِ الكاملةِ والعلمِ السابقِ والمنَّةِ العظيمةِ، وبينَ شهودِ التقصيرِ والإساءةِ منه وتطلبِ عيوبِ نفسِه وأعمالِها. فهذا هو العبدُ الموفقُ المعانُ، الملطوفُ به، المصنوعُ له، الذي أقيمَ في مقامِ العبوديةِ، وضُمن له التوفيق.

وهذا هو مشهدُ الرسل صلواتُ الله وسلامُه عليهم، فهو مشهدُ أبيهِم آدم، إذ يقولُ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦).



ومشهدُ إمامِ الحنفاءِ وشيخِ الأنبياءِ إبراهيمَ صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعينَ، إذ يقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢].

وهذا مشهدُ صاحبِ سيدِ الاستغفارِ، حين يقولُ في دعائه: «**اللهم أنتَ ربي لا إله إلا أنت، خلقْتَني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِك ووعدِك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتِك عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفِرْ لي، إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت**»[1].

●● **ثم أصحابُ هذا المشهد فيه قسمانِ:**

● **أحدُهما:** من يشهدُ تسلطَ عدوِّه عليه، وقيادَه إياه بسلسلةِ الهوى، وكبحَه إياه بلجامِ الشهوةِ. فهو أسيرٌ معه بحيثُ يسوقُه إلى ضربِ عنقِه، وهو مع ذلك ملتفتٌ إلى ربِّه وناصرِه ووليِّه، عالمٌ بأن نجاتَه في يديه، وأن ناصيةَ عدوِّه بيدِه، وأنه لو شاء طردَه عنه وخلَّصَه من يَدَيْهِ. فكلَّما قادَه عدوُّه وكبحَه بلجامِه أكثرَ الالتفاتَ إلى وليِّه وناصرِه، والتضرعَ إليه، والتذللَ بين يديهِ.

وفوقَه مشهدٌ أجلُّ منه وأعظمُ وأخصُّ، تجفُو عنه العبارةُ، وإن أشارتْ إليه بعضَ الإشارةِ. وتقريبُه إلى الفهمِ بضربِ مثلٍ يُعْبَرُ منه إليهِ، وذلك مثلُ عبدٍ أخذَه سيدُه بيدِه، وقدَّمه ليضربَ عنقَه بيدِه، فهو قد أحكَمَ ربطَه، وشدَّ عينيْهِ، وقد أيقنَ العبدُ أنه في قبضَتِه، وأنه هو قاتلُه لا غيرُه. وقد عَلِمَ مع ذلك

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦).

برَّه به ولطفَه، ورحمتَه ورأفتَه، وجودَه وكرمَه؛ فهو يناشِدُه بأوصافِه، ويدخلُ عليه بها، قد ذهبَ عن وَهْمِه وشهودِه كلُّ سببٍ، وانقطعَ تعلقُه بشيءٍ سواه، فهو معرضٌ عن عدوِّه الذي كان سببَ غضبِ سيدِه عليه، قد محا شهودَه من قلبِه، فهو مقصورُ النظرِ إلى سيدِه وكونِه في قبضتِه، ناظرٌ إلى ما يصنَعُه به، منتظرٌ منه ما يقتضِيه عطفُه وبِرُّه وكرمُه.

ولكنْ ما يحصلُ للثاني في مشهدِه ذلك من الأمورِ العجيبةِ فوقَ ما يحصلُ للأولِ، وهو بمنزلةِ من قد أخذَه محبوبُه، فهو يخنقُه خنقةً، وهو لا يشهَدُ إلا خنقَه له، فهو يقولُ: اخنُق خنقَك، فأنت تعلمُ أن قلبي يحبّك!

• **المشهد السابع**: مشهدُ الحكمةِ، وهو أن يشهَدَ حكمةَ الله في تخليتِه بينَه وبينَ الذنبِ، وإقدارِه عليه، وتهيئةِ أسبابِه له، وأنه لو شاء لعصَمَه وحالَ بينَه وبينَه، ولكنه خلَّى بينَه وبينَه لحِكَمٍ عظيمةٍ لا يعلمُ مجموعَها إلا اللهُ:

• **أحدها**: أنه سبحانه يحبُّ التوابينَ ويفرحُ بتوبتِهم.

• **الثاني**: تعريفُ العبدِ عزَّةَ الربِّ تعالى في قضائِه.

• **الثالث**: تعريفُه حاجتَه إلى حفظِه وصيانتِه.

• **الرابع**: استجلابُه من العبدِ استغاثَتَه به.

• **الخامس**: إرادتُه من عبدِه تكميلَ مقامِ الذلِّ والانكسارِ.

• **السادس**: تعريفُه بحقيقةِ نفسِه، وأنها الظالمةُ الجاهلةُ.

• **السابعُ**: تعريفُه عبدَه سعةَ حِلْمِه تعالى وكرمِه في سترِه عليه.

- **الثامنُ:** تعريفُه أنه لا طريقَ إلى النجاةِ إلا بعفوِه ومغفرتِه.
- **التاسعُ:** تعريفُه كرمَه في قبولِ توبتِه.
- **العاشرُ:** إقامةُ الحجةِ على عبدِه، وأنَّه له عليه الحجةُ البالغةُ، فإن عذَّبه فَبِعَدْلِه، وببعضِ حقِّه عليه، بل اليسيرُ منه.
- **الحادي عشرَ:** أن يعامِلَ عبادَه في إساءَتِهم إليه وزلَّاتِهم معه بما يُحبُّ أن يعامِلَه اللهُ به.
- **الثاني عشرَ:** أن يقيمَ معاذيرَ الخلائقِ، وتتسعَ رحمتُه لهم.
- **الثالثَ عشرَ:** أن يخلَعَ صولةَ الطاعةِ والإحسانِ من قلبِه، فتتبدلَ برقَّةٍ ورأفةٍ ورحمةٍ.
- **الرابعَ عشرَ:** أن يُعَرِّيَه من رداءِ العُجْبِ بعمَلِه.
- **الخامسَ عشرَ:** أن يُعَرِّيَه من لباسِ الإدلالِ الذي يصْلُحُ للملوكِ، ويُلبسَه لباسَ الذلِّ الذي لا يليقُ بالعبدِ سواه.
- **السادسَ عشرَ:** أنْ يستخرِجَ من قلبِه عبوديتَه بالخوفِ والخشيةِ وتوابِعِهما من البكاءِ والإشفاقِ والندمِ.
- **السابعَ عشرَ:** أن يُعرِّفَه مقدارَ نعمةِ معافاتِه، وفضلِه في توفيقِه وعصمتِه.
- **الثامنَ عشرَ:** أن يستخرجَ منه محبتَه وشكرَه لربِّه إذا تابَ إليه ورجعَ إليه.
- **التاسعَ عشرَ:** أنه إذا شهِدَ إساءَتَه وظُلْمَه، استكثَرَ القليلَ من نعمةِ ربِّه.

- **العشرونَ:** أنه يوجِبُ له التيقظَ والحذَر من مصايِدِ العدوِّ ومكايِدِه.
- **الحادي والعشرونَ:** أن مِثْلَ هذا ينتفعُ به المرضَى، لمعرفته بأمراضهم ودوائهم.
- **الثاني والعشرونَ:** أنه يرفعُ عنه حجابَ الدَّعوَى، ويفتحُ له طريقَ الفاقةِ.
- **الثالثُ والعشرونَ:** أن يكونَ في القلبِ أمراضٌ مُزمنةٌ لا يشعرُ بها، فيطلبُ دواءَها، فيمن عليه اللطيف الخبير، ويقْضِي عليه بذنبٍ ظاهرٍ، فيجدُ ألم مرضِه، فيحتَمِي، ويشربُ الدواءَ النافعَ، فتزولَ تلك الأمراضُ التي لم يكنْ يشعرُ بها.
- **الرابعُ والعشرونَ:** أن يذيقَه ألم الحجابِ والبعدِ بارتكابِ الذنبِ، ليكملَ له نعمتَه وفرحَه وسرورَه إذا أقبل بقلبِه إليه، وجمَعه عليه، وأقامه في طاعتِه.
- **الخامسُ والعشرونَ:** امتحانُ العبدِ واختبارِه هل يصلحُ لعبوديتِه وولايتِه أم لا.
- **السادسُ والعشرونُ:** أن الحكمةَ الإلهيةَ اقتضتْ تركيبَ الشهوةِ والغضبِ في الإنسانِ، ولا يتمُّ الابتلاءُ والاختبارُ إلا بذلك.
- **السابعُ والعشرونَ:** أن يُنسِيَه رؤيةَ طاعتِه، ويشغِلَه برؤيةِ ذنبِه.
- **الثامنُ والعشرونَ:** أن شهودَ ذنبِه وخطيئتِه يُوجبُ له أن لا يَرى له على أحدٍ فضلًا، ولا له على أحدٍ حقًّا.

- **التاسعُ والعشرونَ**: أنه يوجبُ له الإمساكَ عن عيوبِ الناسِ والفكرَ فيها.
- **الثلاثونَ**: أنه يوجبُ له الإحسانَ إلى الناسِ.
- **الحادي والثلاثون**: أنه يوجبُ له سَعَةَ إبطائِه وحِلْمِه ومغفرتِه لمن أساءَ إليه.

قاعدة

•• في الإنابةِ ودرجاتِها

كثيرًا ما يتكررُ في القرآنِ ذكرُ الإنابةِ والأمرُ بها كقولِه تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤]، وقولِه حكايةً عن شعيبٍ أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨]، وقوله: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٨].

فالإنابةُ: الرجوعُ إلى الله، وانصرافُ دواعي القلبِ وجواذبِه إليه. وهي تتضمنُ المحبَّةَ والخشيةَ، فإن المنيبَ محبٌّ لمن أنابَ إليه، خاضعٌ له، خاشعٌ ذليلٌ.

والناسُ في إنابُاتِهم على درجاتٍ متفاوتةٍ: فمنهم المنيبُ إلى اللهِ بالرجوعِ إليه من المخالفاتِ والمعاصي.

ومنهم المنيبُ إليه بالدخولِ في أنواعِ العباداتِ والقرباتِ، فهو ساعٍ فيها بجهدِه، وقد حُبِّبَ إليه فعلُ الطاعاتِ وأنواعُ القرباتِ.

ومنهم المنيبُ إلى الله بالتضرعِ، والدعاءِ، والافتقارِ إليه، والرغبةِ، وسؤالِ الحاجاتِ كلِّها منه.

ومنهم المنيبُ إليه عند الشدائدِ والضراءِ فقط إنابَة اضطرارٍ، لا إنابةَ اختيارٍ، كحالِ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧].

وهؤلاءِ كلُّهم قد تكونُ نفسُ أرواحِهم ملتفتةً عن الله سبحانَه، معرضةً عنه إلى مألوفٍ طبيعيٍّ نفسانيٍّ قد حالَ بينهَا وبين إنَابتِها بَذاتها إلى معبودِها وإلهِها الحقِّ، فهي ملتفتةٌ إلى غيرِه. ولها إليه إنابةٌ ما بحسَبِ إيمانِها به، ومعرفتِها له.

فأعلَى أنواعِ الإناباتِ: إنابةُ الروحِ بجملتِها إليه بشدةِ المحبةِ الخالصةِ المفنيةِ لهم عمَّا سوى محبوبِهم ومعبودِهم. وحينَ أنابتْ إليه أرواحُهم لم يتخلفْ منهم شيءٌ عن الإنابةِ، فإن الأعضاءَ كلَّها رعيتُها، ومَلِكَها تبعٌ للروحِ، فلما أنابتِ الروحُ بذاتِها إليه، إنابةَ محبٍّ صادقِ المحبةِ ليس في عرقٍ ولا مفصلٍ إلا وفيه حبٌّ ساكنٌ لمحبوبِه، أنابتْ جميعُ القِوَى والجوارحِ. فأنابَ القلبُ أيضًا بالمحبةِ والتضرعِ والذلِّ والانكسارِ، وأنابَ العقلُ بانفعالِه لأوامِرِ المحبوبِ ونواهِيه، وتسليمِه لها، وتَحْكيمِه إيَّاها دونَ غيرِها، فلم يبقَ فيه منازعةُ شبهةٍ معترضةٍ دونَها.

وأنابت النفسُ بالانقيادِ والانخلاعِ عن العوائدِ النفسانيةِ والأخلاقِ الذميمةِ والإراداتِ الفاسدةِ. وانقادتْ للأمرِ خاضعةً له، راغبةً فيه، مؤثرةً إيَّاه على غيرِه، فلم يبقَ فيها منازعةُ شهوةٍ تعترضُها دونَ الأمرِ. وخرجتْ عن تدبيرِها واختيارِها تفويضًا إلى مولاها الحقِّ، ورضيً بقضائِه وتسليمًا لحكمِه. وقد قيل: إن تدبيرَ العبدِ لنفسِه هو آخرُ الصفاتِ المذمومةِ في النفسِ.



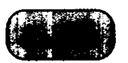
وأنابَ الجسدُ بالأعمالِ والقيامِ بها فرضِها وسُنَنِها على أكملِ الوجوهِ. وأنابت كلُّ جارحةٍ وعضوٍ إنابتَها الخاصةَ.

فلم يبقَ من هذا العبدِ المنيبِ عرقٌ ولا مفصلٌ إلا وله إنابةٌ ورجوعٌ إلى الحبيبِ الحقِّ الذي كلُّ محبةٍ سِوَى محبتِه عذابٌ على صاحبِها، وإن كانت عَذْبةً في مبادئِها، فإنها عذابٌ في عواقِبِها. فإنابةُ العبد ـ ولو ساعةً من العمْرِ ـ هذه الإنابُة الخالصةُ أنفعُ له، وأعظمُ ثمرةً من إنابةِ سنينَ كثيرةٍ من غيرِه. فأينَ إنابةُ هذا من إنابةِ من قبلَه؟ وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ. بل هذا روحُه منيبةٌ أبدًا، وإن توارى عنه شهودُ إنابتِها باشتغَالٍ، فهي كامنةٌ فيها كُمونَ النَّارِ في الزِّنادِ.

وأما أصحابُ الإنابةِ المتقدمةِ، فإن أناب أحدُهم ساعةً بالدعاءِ والذكرِ والابتهالِ، فلنفسِه وروحِه وقلبِه وعقلِه التفاتٌ عمَّن قد أنابَ إليه. فهو ينيبُ ببعضِه ساعةً، ثم يتركُ ذلك مقبلًا على دواعِي نفسِه وطبعِه.

واللهُ الموفقُ المعينُ، لا ربَّ غيرُه، ولا إلهَ سِوَاه.

■■■■■



•• في ذكر طريقٍ قريبٍ موصلٍ إلى الاستقامةِ في الأحوالِ والأقوالِ والأعمالِ

وهي شيئان:

• **أحدهما:** حراسةُ الخواطرِ وحفظُها، والحذرُ كلَّ الحذرِ من إهمالِها والاسترسالِ معها.

ولا ريبَ أن دفعَ الخواطرِ أيسرُ من دفعِ الإراداتِ والعزائمِ، فيجدُ العبدُ نفسَه عاجزًا أو كالعاجزِ عن دفعِها بعد أن صارَتْ إرادةً جازمةً، وهو المفرِّطُ إذ لم يدفَعْها وهي خاطرٌ ضعيفٌ؛ كمَنْ تهاونَ بشرارةٍ من نارٍ وقعتْ في حطبٍ يابسٍ، فلما تمكَّنتْ منه عجزَ عن إطفائِها.

فإن قلتَ: فما الطريقُ إلى حفظِ الخواطرِ؟

قلت: أسبابٌ عدَّةٌ:

• **أحدُها:** العلمُ الجازمُ باطلاعِ الربِّ تعالى، ونظرِه إلى قَلْبِك، وعلمُه بتفصيلِ خواطرِك.

• **الثاني:** حياؤُك منه.

• **الثالث:** إجلالُك له أن يَرَى مثل تلك الخواطرِ في بيتِه الذي خلقَه لمعرفتِه ومحبتِه.

• **الرابعُ:** خوفُك منه أنْ تسقُطَ من عينِه بتلكَ الخواطرِ.

• **الخامسُ:** إيثارُك له أن يساكِنَ قلبَك غيرُ محبتِه.

• **السادسُ:** خشيتُك أن تتولَّدَ تلك الخواطرُ، ويَسْتَعِرَ شَرَرُها، فتأكُلَ ما في القلبِ من الإيمانِ ومحبةِ الله.

• **السابعُ:** أن تعلمَ أن تلك الخواطرَ بمنزلةِ الحَبِّ الذي يُلقَى للطائرِ ليصَادَ به.

• **الثامنُ:** أن تعلمَ أن تلك الخواطرَ الرديئةَ لا تجتمعُ هي وخواطرُ الإيمانِ ودواعي المحبةِ والإنابةِ أصلًا، بل هي ضدُّها من كلِّ وجهٍ.

• **التاسعُ:** أن يعلمَ أن تلك الخواطرَ بحرٌ من بحورِ الخيالِ لا ساحلَ له، فإذا دخلَ القلبُ في غمراتِه غرِقَ فيه، وتاه في ظلماتِه.

• **العاشرُ:** أن تلك الخواطرَ هي وَادِي الحمقَى وأمانيُّ الجاهلينَ، فلا تُثمرُ لصاحبِها إلا الندامةَ والخزْيَ.

كما أن هذا معلومٌ في الخواطرِ النفسانيةِ، فهكذا الخواطرُ الإيمانيةُ الرحمانيةُ، هي أصلُ الخيرِ كلِّه.

• **الثاني:** صِدْقُ التأهبِ للقاءِ الله عزَّ وجلَّ. وهذا من أنفعِ ما للعبدِ وأبلغِه في حصولِ استقامتِه. فإن من استعدَّ للقاءِ الله انقطعَ قلبُه عن الدنيا ومطالبِها، وخمدتْ من نفسِه نيرانُ الشهواتِ، وأخبَتَ قلبُه إلى ربِّه تعالى، وعَكَفَتْ همتُه على الله وعلى محبتِه وإيثارِ مرضاتِه.

والمقصودُ أن صدقَ التأهبِ للقاءِ الله هو مفتاحُ جميعِ الأعمالِ الصالحةِ، والأحوالِ الإيمانيةِ، ومقاماتِ السالكينَ إلى الله ومنازلِ السائرينَ إليه، من اليقظةِ والتوبةِ والإنابةِ والمحبةِ والرجاءِ والخشيةِ والتفويضِ والتسليمِ وسائرِ

أعمالِ القلوبِ والجوارحِ. فمفتاحُ ذلك كلِّه صدقُ التأهبِ والاستعدادِ للقاءِ اللهِ، والمفتاحُ بيدِ الفتاحِ العليمِ، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواه.

•• الطريقُ إلى اللهِ واحدٌ

الناسُ قسمانِ: عِليةٌ، وسِفْلَةٌ، فالعِلْيةُ من عرفَ الطريقَ إلى ربِّه، وسلكَها قاصدًا للوصولِ إليه، وهذا هو الكريمُ على ربِّه. والسِّفْلَةُ من لم يعرفِ الطريقَ إلى ربِّه، ولم يتعرفْها، فهذا هو اللئيمُ الذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

والطريقُ إلى اللهِ في الحقيقةِ واحدٌ لا تعدُّدَ فيه، وهو صراطُه المستقيمُ الذي نَصَبَه موصِّلًا لمن سلكَه إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فوحَّد سبيلَه لأنه في نفسِه واحدٌ لا تعدُّدَ فيه، وجمعَ السُّبُلَ المخالفةَ لأنها كثيرةٌ متعددةٌ، كما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه خطَّ خطًّا، ثم قال: «هذا سبيلُ الله». ثم خطَّ خطوطًا عن يمينِه وعن يسارِه، ثم قال: **«هذه سُبُلٌ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعُو إليه»**، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣][1].

وأما ما يقعُ في كلامِ بعضِ العلماءِ أن الطرقَ إلى الله متعددةٌ متنوعةٌ، جعلَها الله كذلك لتنوعِ الاستعداداتِ واختلافِها، رحمةً منه وفضلًا فهو

(١) رواه أحمد (٤٣٥)، والدارمي في السنن (٢٠٢).

صحيحٌ لا ينافي ما ذكرناه من وحدةِ الطريقِ.

وكشف ذلك وإيضاحُه أن الطريقَ واحدةٌ جامعةٌ لكلِّ ما يُرضي اللهَ. وما يُرضِيه سبحانه مُتعددٌ متنوعٌ، فجميعُ ما يُرضيه طريقٌ واحدٌ، ومراضِيه متعددةٌ متنوعةٌ بحسَبِ الأزمانِ والأماكنِ والأشخاصِ والأحوالِ، فكلُّها طُرقٌ مرضاتِه.

وإذا عُلمَ هذا فمن الناسِ من يكونُ سيدُ عملِه وطريقُه الذي تعبَّد بسلوكِه إلى الله طريقَ العلمِ والتعليمِ، قد وفَّر عليه زمانَه مبتغيًا به وجْهَ الله.

ومن الناسِ من يكونُ سيدُ عملِه الذكرَ، قد جعله زادَه لمعادِه، ورأسَ مالِه لمآلِه، ومن الناسِ من يكونُ سيدُ عملِه وطريقُه الصلاةَ، فمتى قَصَّر في وِرْدِه منها، أو مَضَى عليه وقتٌ، وهو غيرُ مشغولٍ بها أو مستعدٍّ لها، أظلمَ عليه وقتُه، وضاقَ صدُره.

ومن الناسِ من يكونُ طريقُه الإحسانَ والنفعَ المتعدي، كقضاءِ الحاجاتِ، وتفريجِ الكرباتِ، ومن الناسِ من يكونُ طريقُه تلاوةَ القرآنِ، فهي الغالبُ على أوقاتِه، وهي أعظمُ أورادِه. ومنهم من يكون طريقُه الصومَ فهو متى أفطرَ تغيَّر عليه قلبُه، وساءَتْ حالهُ، ومنهم من يكونُ طريقُه الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ، قد فُتِح له فيه، ونفذَ منه إلى ربِّه.

ومنهم من يكونُ طريقُه الذي نَفَذَ فيه الحجَّ والاعتمارَ. ومنهم من يكونُ طريقُه قطعَ العلائقِ، وتجريدَ الهمةِ، ودوامَ المراقبةِ، ومراعاةَ الخواطرِ، وحفظَ الأوقاتِ أن تذهبَ ضائعةً.

ومنهم الجامعُ الفذُّ، السالكُ إلى الله في كلِّ وادٍ، الواصلُ إليهِ من كلِّ طريقٍ. فهو قد جعلَ وظائفَ عبوديتِه قَبلةَ قلبِه ونصبَ عينِه، يؤمُّها أين كانتْ، ويسيرُ معها حيث سارتْ، قد ضَرَب مع كلِّ فريقٍ بسهْمٍ. فأين كانت العبوديةُ وجدتَه هناك.

ومن ذاقَ شيئًا من ذلك، وعرفَ طريقًا مُوصلةً إلى الله، ثم تركَها، وأقبلَ على إراداتِه وراحاتِه وشهواتِه ولذاتِه، وقعَ في آبارِ المعاطَبِ، وأودَع قلبَه سجونَ المضايقِ، وعُذبَ في حياتِه عذابًا لم يعذِّبْه أحدٌ من العالمينَ.

فالمحرومُ كلّ المحرومِ من عرفَ طريقًا إليه، ثم أعرضَ عنها؛ أو وجدَ بارقةً من حُبِّه ثم سُلبَها، لم ينفُذْ إلى ربِّه منها، فطوبَى لمن أقبلَ على الله بكليَّتِه، وعكفَ عليه بإرادتِه ومحبتِه، فإن اللهَ يُقبلُ عليه بتولِّيه ومحبتِه وعطفِه ورحمتِه.

■■■■■

قاعدة

•• السيرُ إلى اللهِ لا يتمُّ إلا بقوَّتَين: علميةٍ وعمليةٍ

السائرُ إلى اللهِ والدارِ الآخرةِ، بل كلُّ سائرٍ إلى مقصدٍ، لا يتمُّ سيرُه ولا يصلُ إلى مقصودِه إلا بقوَّتين: قوَّةٍ علميةٍ، وقوَّة عمليةٍ

فبالقوةِ العلميةِ يبصِرُ منازلَ الطريقِ ومواضِعَ السلوكِ، فيقصِدُها سائرًا فيها، ويجتنبُ أسبابَ الهلاكِ، ومواضعَ العَطَبِ، وطرقَ المهالِك المنحرفةِ عن الطريقِ الموصلِ.

وبالقوةِ العمليةِ يسيرُ حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقةُ القوةِ العمليةِ، فإنَّ السيرَ هو عملُ المسافرِ. وكذلك السائرُ إلى ربِّه إذا أبصرَ الطريقَ وأعلامهَا، وأبصرَ المعاثِرَ والوِهَادَ والطرقَ الناكبةَ عنها، فقد حصلَ له شطرُ السعادةِ والفلاحِ. وبقِيَ عليه الشطرُ الآخرُ، وهو أن يضَعَ عَصَاهُ على عاتقِه، ويشمِّرَ مسافرًا في الطريقِ، قاطعًا منازِلَها منزلةً بعدَ منزلةٍ. فكلَّما قطعَ مرحلةً استعدَّ لقطعِ الأُخْرى، واستشعَرَ القربَ من المنزلِ، فهانَ عليه مشقَّةُ السفرِ. وكلَّما شكتْ نفسُه من كِلَالِ السيرِ ومواصلةِ الشدِّ والرحْلِ وَعَدَها قُربَ التَّلاقي وبردَ العيشِ عندَ الوصولِ، فيُحْدِثُ لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمَّةً.

فإن استصعبتْ عليه فليذكِّرْها ما أمَامَها من أحبابِها، وما لديْهِم من الإكرامِ والإنعامِ، وما خَلْفَها من أعدائِها وما لديْهِم من الإهانةِ والعذابِ وأنواعِ البلاءِ.

ولا يستوحشُ مما يجدُه من كثافةِ الطبعِ، ودَرَنِ النفسِ، وبطءِ سيرِها.

فكُلّما أدمَنَ السيرَ وواظبَ عليه غُدُوًّا ورَوَاحًا وسَحَرًا قرُبَ من المنزلِ، وتلطَّفتْ تلك الكثافةُ، وذابتْ تلك الخبائثُ والأدرانُ، وظهرتْ عليه همَّةُ المسافرينَ وسيماهُم، فتبدَّلتْ وحشتُه أُنسًا، وكثافتُه لطافةً، ودرنُه طهارةً.

فمن النَّاسِ من تكونُ له القوةُ العِلْمِيَّةُ الكاشفةُ عن الطريقِ ومنازِلها وأعلامِها وعوارِضِها ومعاثِرِها، وتكونُ هذه القوَّةُ أغلبَ القوَّتينِ عليه، ويكونُ ضعيفًا في القوةِ العمليةِ. يُبصِرُ الحقائقَ ولا يعمَلُ بموجَبِها، ويرى المتالفَ والمخاوفَ والمعاطِبَ ولا يَتَوقَّاها.

ومن الناسِ من تكونُ له القوةُ العَمَلِيَّةُ الإراديةُ، وتكونُ أغلبَ القوتينِ عليه. وتقتَضِي هذه القوةُ السيرَ والسلوكَ، والزهدَ في الدنيا، والرغبةَ في الآخرةِ، والجِدَّ والتشميرَ في العملِ. ويكونُ أعمَى البصرِ عندَ ورودِ الشبهاتِ في العقائدِ، والانحرافاتِ في الأعمالِ والأحوالِ والمقاماتِ، كما كان الأولُ ضعيفَ العقلِ عندَ ورودِ الشهواتِ. فداءُ هذا من جهلِه، وداءُ الأولِ من فسادِ إرادتِه وضعفِ عقلِه.

وهذا حالُ أكثر أربابِ الفقرِ والتصوفِ السالكينَ على غيرِ طريقِ العلمِ، بل على طريقِ الذوْقِ والوجْدِ والعادةِ. فمن كانت له هاتانِ القوتانِ استقامَ له سيرُه إلى الله تعالى، ورُجِي له النفوذُ، وقَوِيَ على ردِّ القواطعِ والموانعِ بحولِ الله وقوتِه.

■■■■■

قاعدة نافعة

•• أقسامُ العبادِ في سفرِهم إلى ربِّهم

العبدُ من حينِ استقرَّتْ قدمُه في هذه الدارِ فهو مسافرٌ إلى ربِّه، ومدَّةُ سفرِه هي عمرُه الذي كُتبَ له. فالعمرُ هو مدَّة سَفَرِ الإنسانِ في هذِه الدارِ إلى ربِّه تعالى، ثمَّ قد جُعلتِ الأيامُ والليالي مراحِلَ لسفرِه، فكلُّ يومٍ وليلةٍ مرحلةٌ من المراحلِ، فلا يزالُ يَطْوِيها مرحلةً بعد مرحلةٍ حتى يَنتَهِي السفرُ.

ثم الناسُ في قَطْعِ هذه المراحلِ قسمانِ:

فقسمٌ قطعُوها مسافرينَ فيها إلى دارِ الشقاءِ، فكلَّما قَطَعُوا مرحلةً منها قَرُبوا من تلك الدارِ، وبعُدُوا عن ربِّهم وعن دارِ كرامتِه. فقطعوا تلك المراحلَ بمساخِطِ الربِّ ومعاداتِه، ومعاداةِ رسلِه وأوليائِه ودينِه، والسعيِ في إطفاءِ نورِه، وإبطالِ دعوتِه ـ دعوةِ الحقِّ ـ وإقامةِ دعوةٍ غيرِها.

القسمُ الثاني: قطعُوا تلك المراحلَ سائرينَ فيها إلى اللهِ وإلى دارِ السلامِ. وهم ثلاثةُ أقسامٍ: ظالمٌ لنفسِه، ومقتصدٌ، وسابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللهِ. وهؤلاءِ كلُّهم مستعدونَ للسيرِ موقنونَ بالرّجْعَى إلى اللهِ، ولكن متفاوتونَ في التزودِ وتعبئةِ الزادِ واختيارِه، وفي نفسِ السيرِ وسرعتِه وبطئِه.

فنذكر بعونِ اللهِ وفضلِه نبذةً من متاجرِ الأقسامِ الثلاثةِ ليعلمَ العبدُ من أيِّ التجارِ هو:

•• أحوال الظالم لنفسه

فأمَّا الظالمُ لنفسِه فإنه إذا استقبلَ مرحلةَ يومِه وليلتِه استقبَلَها وقد

سبقَتْ حظوظُه وشهواتُه إلى قلبِه، فحرَّكتْ جوارحَه طالبةً لها ساعيةً فيها. فإذا زاحمتْها حقوقُ ربِّه فتارةً وتارةً: فمرةً يأخذُ بالرخْصَةِ، ومرةً بالعزيمةِ، ومرةً يُقْدِمُ على الذنبِ وتركِ الحقِّ تهاونًا ووعدًا بالتوبةِ. فهذا حالُ الظالمِ لنفسِه، معَ حفظِ التوحيدِ، والإيمانِ باللهِ ورسولِه واليومِ الآخرِ، والتصديقِ بالثوابِ والعقابِ. فمرحلةُ هذا مقطوعَةٌ بالربحِ والخسرانِ، وهو للأغلبِ منهما. فإذا وردَ القيامةَ مُيِّزَ ربحُه من خسرانِه، وحُصِّلَ ربحُه وحدَه، وخسرانُهُ وحدَه، وكان الحكُم للراجِح منهما. وحكمُ اللهِ عزَّ وجلَّ من وراءِ ذلك، لا يعدمُ عبادُه منه فضلَه وعدلَه.

•• أحوال المقتصدين

وأما المقتصدونَ: فأدَّوْا وظيفَة تلك المرحلةِ، ولم يزيدُوا عليها، ولم ينقصُوا منها. فلا حَصَلوا على أرباحِ التجارةِ، ولا بخسُوا الحقَّ الذي عليهم.

فإذا استقبل أحدُهم مرحلَة يومِه استقبلَها بالطّهورِ التامِّ والصلاةِ التامةِ في وقتِها، بأركانِها وواجباتِها وشرائِطها؛ ثم ينصرفُ منها إلى مباحاتِه ومعيشتِه وتصرفاتِه التي أذن اللهُ له فيها مشتغلًا بها، قائمًا بأعبائِها، مؤديًا واجبَ الربِّ فيها، غيرَ متفرغٍ لنوافلِ العباداتِ وأورادِ الأذكارِ والتوجُّه.

فإذا حَضَرتِ الفريضةُ الأُخرى بادرَ إليها كذلك، فإذا أكمَلَها انصرفَ إلى حالِه الأولِ، فهو كذلك سائِرَ يومِه.

فإذا جاء الليلُ فكذلك إلى حينِ النومِ، يأخذُ مضجَعَه حتى ينشقَّ الفجْرُ، فيقومُ إلى عدَّانِه ووظيفتِه.

فإذا جاء الصومُ الواجبُ قام بحقِّه، وكذلك الزكاةُ الواجبةُ، والحجُّ الواجبُ.

وكذلك المعاملةُ مع الخلقِ، يقومُ فيها بالقِسْطِ، لا يظلمُهم، ولا يتركُ حقَّه لهم.

•• أحوال السابقين بالخيرات

وأمَّا السابقونَ بالخيراتِ فهم نوعانِ: أبرارٌ ومقرَّبونَ. وهؤلاءِ الأصنافُ الثلاثةُ هم أهلُ اليمينِ، وهم: المقتصدونَ، والأبرارُ، والمقرَّبونَ. وأما الظالمُ لنفسِه فليسَ من أصحابِ اليمينِ عند الإطلاقِ، وإن كان مآله إلى أصحابِ اليمينِ، كما أنه لا يُسَمَّى مؤمنًا عند الإطلاقِ وإن كان مصيرُه ومآلُه مصيرَ المؤمنينَ بعد أَخْذِ الحقِّ منه.

والمقصودُ الكلامُ على مراحلِ العالمينَ وكيفيةِ قَطْعِهم إيَّاها، فلنرجِعْ إليه فنقولُ:

أما الأشقياءُ فقطَعوا تلك المراحلَ سائرينَ إلى دارِ الشقاءِ متزودينَ غضبَ الربِّ سبحانَه، ومعاداةَ كتبِه ورسلِه وما بُعثوا به، ومعاداةَ أوليائِه والصدَّ عن سبيلِه، ومحاربةَ من يدعُو إلى دينِه، ومقاتلةَ الذين يأمرونَ بالقسطِ من الناسِ، وإقامةَ دعوةٍ غيرِ دعوة الله سبحانَه التي بَعَثَ بها رسلَه لتكونَ الدعوةُ له وحدَه. فقطعَ هؤلاءِ الأشقياءُ مراحلَ أعمارِهم في ضدِّ ما يحبُّه ويرضَاه.

وأمَّا السَّائرونَ إليه، فَظَالمهُم قطعَ مراحِلَ عُمْرِه في غفلاتِه وإيثارِ شهواتِه ولذَّاتِه على مراضِي الربِّ وأوامرِه، مع إيمانِه باللهِ وكتبِه ورسلِه

واليومِ الآخرِ ، لكنَّ نفسَه مغلوبةٌ معه، مأسورٌ مع حظِّه وهواه، يعلمُ سوءَ حالِه، ويعترفُ بتفريطِه، ويعزمُ على الرجوعِ إلى الله. فهذا حالُ المؤمنِ المسلمِ.

وأما من زُيِّنَ له سوءُ عَمَلِه فرآه حَسَنًا، وهو غيرُ معترفٍ ولا مُقِرٌّ ولا عازمٍ على الرجوعِ إلى الله والإنابةِ إليه أصلًا، فهذا لا يكادُ إسلامُه أن يكونَ صحيحًا أبدًا، ولا يكونُ هذا إلا منسلخَ القلبِ من الإيمانِ، ونعوذُ باللهِ من الخذلانِ.

وأمَّا الأبرارُ المقتصدونَ فقطَعوا مراحلَ سفرِهم بالاهتمامِ بإقامةِ أمرِ الله، وعَقْدِ القلبِ على تركِ مخالفتِه ومعاصِيه، فَهِمَمُهُمْ مصروفةٌ إلى القيامِ بالأعمالِ الصالحةِ واجتنابِ الأعمالِ القبيحةِ.

فأولُ ما يستيقظُ أحدُهْم من منامِه يسبقُ إلى قلبِه القيامُ إلى الوضوءِ والصلاةِ كما أمرَه اللهُ. فإذا أدَّى فرضَ وقتِه اشتغلَ بالتلاوةِ والأذكارِ إلى حينِ تطلعُ الشمسُ، فركَعَ الضُّحَى، ثم ذهَبَ إلى ما أقامه الله فيه من الأسبابِ.

فإذا حَضَر فرضُ الظّهْرِ بادرَ على التطهرِ والسعيِ إلى الصفِّ الأولِ من المسجدِ، فأدَّى فريضَتَه كما أُمر مكمِّلًا لها بشرائِطِها وأركانِها وسُنَنِها وحقائِقِها الباطنةِ من الخشوعِ والمراقَبةِ والحضورِ بين يدي الرَّبِّ.

فينصرفُ من الصلاةِ وقد أثَّرتْ في قلبِه وبدنِه وسائرِ أحوالِه آثارًا تبدُو على صفحاتِه ولسانِه وجوارحِه. ويجدُ ثمرتَها في قلبِه من الإنابةِ إلى دارِ الخلودِ، والتَّجَافي عن دارِ الغرورِ، وقلَّةِ التكالبِ والحرصِ على الدنيا

وعاجِلِها. قد نَهَتْهُ صلاتُه عن الفحشاءِ والمنكرِ، وحَبَّبَتْ إليه لقاءَ الله، ونفَّرتْه من كلِّ قاطعٍ يقطعُه عن الله. فهو مغمومٌ مهمومٌ، كأنه في سِجْنٍ، حتى تحضُرَ الصلاةُ، فإذا حَضَرتْ قام إلى نعيمِه وسرورِه وقرَّة عينِه وحياةِ قلبِه، فهو لا تطيبُ له الحياةُ إلا بالصلاةِ.

هذا، وهم في ذلك كلِّه مراعونَ لحفظِ السُّننِ لا يُخِلُّونَ منها بشيءٍ ما أمكَنَهم. فيقْصِدُون من الوضوءِ أكمَلَه، ومن الوقتِ أوَّلَه، ومن الصفوفِ أولَها عن يمينِ الإمامِ أو خلفَ ظهرِه.

ويأتونَ بعد الفريضةِ بالأذكارِ المشروعةِ كالاستغفارِ ثلاثًا، وقولِ: «**اللهم أنت السلامُ، ومنك السلامُ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ**»[١]، وقولِ: «**لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير. اللهم لا مانعَ لما أعطيْتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منك الجدُّ، لا إلهَ إلا اللهُ، ولا نعبدُ إلا إيَّاه، له النعمةُ وله الفضلُ وله الثناءُ الحسنُ، لا إله إلا اللهُ مخلصينَ له الدِّينَ ولو كَرِه الكافرونَ**»[٢].

ثم يُسَبِّحونَ ويحمَدُون ويكبِّرون تسعًا وتسعينَ، ويختمونَ المائةَ بـ: «**لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ**»[٣].

هذا دَأْبُهم في كلِّ فريضةٍ.

---

(١) رواه مسلم (٥٩١).
(٢) رواه مسلم (٥٩٤).
(٣) رواه مسلم (٥٩٧).

فإذا كان قبلَ غروبِ الشمسِ توفَّروا على أذكارِ المساءِ الواردةِ في السنةِ نظيرَ أذكارِ الصباحِ الورادةِ في أولِ النهارِ، لا يُخِلُّون بها أبدًا. فإذا جاءَ الليلُ كانوا فيه على منازِلهم من مواهبِ الربِّ تعالى التي قَسَّمَها بين عِبَادِه.

فإذا أخذوا مَضَاجِعَهم أتوا بأذكارِ النومِ الواردةِ في السنةِ.

فلا يزالُ يذكرُ اللهَ على فراشِه حتى يَغْلِبَه النومُ وهو يذكرُ اللهَ. فهذا منامُه عبادةٌ، وزيادةٌ له في قُربِه من الله. فإذا استيقظَ عادَ إلى عدَّانِه الأولِ. ومع هذا فهو قائمٌ بحقوقِ العبادِ من عيادةِ المرضَى، وتشييعِ الجنائزِ، وإجابةِ الدعوةِ، والمعاونةِ لهم بالجاهِ والبدنِ والنفسِ والمالِ، وزيارتِهم، وتفقُّدِهم؛ وقائمٌ بحقوقِ أهلِه وعيالِه.

•• أحوال السابقين المقربين

وأمَّا السابقون المقربونَ، فنستغفرُ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو أولًا من وصفِ حَالِهم وعدمِ الاتصافِ به، بل ما شَمَمْنَا له رائحةً، ولكنْ محبةُ القومِ تحملُ على تعرفِ منزلتِهم والعلمِ بها. وإن كانت النفوسُ مُتَخَلِّفةً منقطعةً عن اللِّحاقِ بهم، ففي معرفةِ حالِ القومِ فوائدُ عديدةٌ:

منها أن لا يزالُ المتخلفُ المسكين مُزريًا على نفسِه، ذامًّا لها، لائمًا لها.

ومنها أنه لا يزالُ منكسرَ القلبِ بين يَدَيْ ربِّه، ذليلًا له حقيرًا، ويشهدُ منازلَ السابقينَ وهو في زمرةِ المنقطعينَ، ويشهدُ بَضَائِعَ التجارِ وهو في رفقةِ المحرومينَ.

فنبأُ القومِ عجيبٌ، وحالُهم أعجبُ، وأمرُهم أخفَى إلا على من له مشاركةٌ

مع القومِ، فإنه يطلعُ من حالِهم على ما يُريه إياه القَدْرُ المشتركُ.

وجملةُ أمرِهم أنهم قومٌ قد امتلأتْ قلوبُهم من معرفةِ الله، وعُمِرتْ بِمَحَبتِه وخشيتِه وإجلالِه ومُراقبتِه، فَسَرَتِ المحبةُ في أجزائِهم، فلم يبقَ فيها عِرْقٌ ولا مِفْصَلٌ إلا وقد دَخَلَه الحبُّ. قد أنسَاهُم حبُّه ذِكْرَ غيرِه، وأوحشَهم أنسُهم به ممَّن سِوَاه. قد فَنَوْا بحبِّه عن حبِّ من سِوَاه، وبذكرِه عن ذكرِ مَنْ سِوَاه، وبخوفِه، ورَجَائِه، والرغبةِ إليه، والرهبةِ منه، والتوكلِ عليه، والإنابةِ إليه، والسكونِ إليه، والتذللِ والانكسارِ بين يدَيْه؛ عن تعلقِ ذلك منهم بغيرِه.

فإذا وضعَ أحدُهم جَنْبَه على مَضْجَعِه صَعِدَتْ أنفاسُه إلى إلهه ومولاه، واجتَمعَ همُّه عليه، متذكِّرًا صفاتِه العُلَى وأسماءَه الحسْنَى، مشاهدًا له في أسمائِه وصفاتِه، قد تجلَّتْ على قَلْبِه أنوارُها، فانصَبغَ قلبُه بمعرفتِه ومحبتِه، فبات جسمُه في فراشِه يَتَجَافَى عن مَضْجَعِه، وقلبُه قد أَوَى إلى مَوْلاه وحبيبِه، فآواه إليه، وأسجَدَه بين يديْهِ خاضعًا خاشعًا ذليلًا منكسرًا من كلِّ جهةٍ من جهاتِه. فيالها سجدةً ما أشرَفها من سجدةٍ، لا يرفَعُ رأسَه منها إلى يومِ اللقاءِ!

وقيلَ لبعضِ العارفينَ: أيسجدُ القلبُ بينَ يدَي ربِّه؟ فقال: «أي والله، سجدةً لا يرفعُ رأسَه منها إلى القيامةِ!».

فإذا استيقظَ هذا القلبُ من منامِه صَعَدَ إلى الله بِهَمِّه وحبِّه وأشواقِه مشتاقًا إليه، طالبًا له، محبًّا له، عاكفًا عليه.

فإذا استيقظ أحدُهم، وقد بدر إلى قلبه هذا الشأنُ، فأولُ ما يجري على لسانِه ذكرُ محبوبِه، والتوجُّه إليه، واستعطافُه، والتملُّقُ بين يديْهِ، والاستعانةُ

به أن يخلّيَ بينَه وبين نفسِه، وأن لا يَكِلَه إليها، فَيَكِلَه إلى ضَيْعةٍ وعجزٍ وذنبٍ وخَطيئةٍ، بل يكلَؤُه كلاءةَ الوليدِ الذي لا يملكُ لنفسِه ضَرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

فأولُ ما يبدأُ به قولَ: «**الحمدُ لله الذي أحْيَانا بعدَ ما أماتَنا وإليه النشورُ**»[1]، متدبرًا لمعناها من ذكرِ نعمةِ الله عليه بأن أحيَاه بعد نومِه الذي هو أخوُ الموتِ، وأعادَه إلى حالِه سويًّا سليمًا محفوظًا مما لا يعلَمُه ولا يخطُر ببالِه من المؤذياتِ والمهلكاتِ التي هو غرضٌ وهدفٌ لسِهَامِها، كلُّها تقصِدُه بالهلاكِ أو الأذى، والتي من بعضِها أرواحُ شياطينِ الإنسِ والجنِّ، فإنها تلتقِي بروحِه إذا نامَ، فتقصِدُ إهلاكَه وأذاه؛ فلولا أن اللهَ سبحانه يدفعُ عنه لما سَلِمَ.

ثم يقولُ: «**لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. الحمدُ لله، وسبحانَ الله، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله**»[2]. ثم يدعُو ويتضرعُ.

ثم يقومُ إلى الوُضوءِ بقلبٍ حاضرٍ مستصحِبٍ لما فيه.

ثم يُصَلِّي ما كَتَبَ اللهُ له صَلاةَ محبٍّ خاضعٍ لمحبوبِه متذللٍ منكسرٍ بين يديْهِ، لا صلاةَ مُدِلٍّ بها عليه، يَرَى من أعظمِ نعمِ محبوبِه عليه أن أقامَه وأنامَ غيرَه، واستزَارَه وطردَ غيرَه، وأهَّلَه وحَرَمَ غيره، فهو يزدادُ بذلك محبَّةً إلى محبتِه.

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٢).

(٢) رواه البخاري (١١٥٤).

فإذا صَلَّى ما كتب الله جَلس مطرقًا بين يَدَيْ ربِّه تعالى هيبةً له وإجلالًا، واستغفَره استغفارَ من قد تيقَّن أنه هالِك إن لم يَغْفِرْ له وَيَرْحَمْه. فإذا قَضَى من الاستغفارِ وطرًا، وكان عليه بعدُ ليلٌ اضطَجَعَ على شِقِّه الأيمنِ مُجِمًّا نفسَه، مريحًا لها، مقويًا لها على أداءِ وظيفةِ الفرضِ.

ثم ينهضُ إلى صلاةِ الصبحِ قاصدًا الصفَّ الأولَ عن يمينِ الإمامِ أو خلفَ قَفَاه. فإن فاته ذلك قَصَدَ القربَ منه مهما أمكنَ، فإن للقربِ من الإمامِ تأثيرًا في سرِّ الصلاةِ.

فإذا فرغَ من صلاةِ الصبحِ أقبلَ بكليتِه على ذكرِ الله والتوجهِ إليه بالأذكارِ التي شُرِعَتْ أولَ النهارِ، فيجعلُها وردًا لا يُخِلُّ به أبدًا، ثم يزيدُ عليها ما شاءَ من الأذكارِ الفاضلةِ أو قراءةِ القرآنِ حتى تطلعَ الشمسُ حسنًا. فإذا طلعتْ فإن شاءَ ركعَ ركعَتَي الضُّحَى وزاد ما شاء، وإن شاء قامَ من غيرِ ركوعٍ.

ثم يذهبُ متضرعًا إلى ربِّه، سائلًا له أن يكونَ ضامنًا عليه، متصرِّفًا في مرضاتِه بقيةَ يومِه. فلا يتقلبُ إلا في شيءٍ يَظْهَرُ له فيه مرضاةُ ربِّه، وإن كان من الأفعالِ العاديةِ الطبيعيةِ قَلَبه عبادةً بالنيةِ، وقصدَ الاستعانةَ به على مرضاةِ الربِّ.

فإذا جاء فرضُ الظهرِ بادرَ إليه كذلك مكمِّلًا له، ناصحًا فيه لمعبودِه كنُصْحِ المحبِّ الصادقِ المحبةِ لمحبوبِه.

وبالجملةِ، فهذا حالُ هذا العبدِ مع ربِّه في جميع أعمالِه، فهو يعلمُ أنه لا يُوفِّي هذا المقامَ حقَّه، فهو أبدًا يستغفرُ اللهَ عقيبَ كلِّ عملٍ. وكان النبيُّ ﷺ

إذا سلَّم من الصلاةِ استغفَر ثلاثًا[1].

•• جماعُ أحوال السابقين المقربين

وجماعُ الأمرِ في ذلك إنما هو بتكميلِ عبوديةِ الله عزَّ وجلَّ في الظاهرِ والباطنِ، فتكونُ حركاتُ نفسِه وجسمِه كلُّها في محبوباتِ الله، فكمالُ عبوديةِ العبدِ موافقَتُه لربِّه في محبةِ ما أحبَّه، وبذلُ الجهْدِ في فعلِه وموافقَتُه في كراهةِ ما كَرِهَه، وبذلَ الجهدَ في تركِه. وهذا إنما يكونُ للنفسِ المطمئنةِ، لا للأمارةِ ولا للوامةِ. فهذا كمالٌ من جهةِ الإرادةِ والعملِ.

وأمَّا من جِهَةِ العِلْمِ والمعرفةِ فأن تكونَ بصيرتُه منفتحةً في معرفةِ الأسماءِ والصفاتِ والأفعالِ، له شهودٌ خاصٌّ فيها مطابِقٌ لما جاءَ به الرسولُ لا مخالفٌ له، فَإِنَّ بحسَبِ مخالفتِه له في ذلك يقعُ الانحرافُ. ويكونُ مع ذلك قائمًا بأحكامِ العبوديةِ الخاصةِ التي تقتضِيها كلُّ صفةٍ بخُصوصِها.

فَمَنْ فتحَ اللهُ بصيرَةَ قلبِه وإيمانِه حتى خرقَها وجاوزَها إلى مُقْتَضى الوحيِ والفطرةِ والعقلِ، فقد أُوتي خيرًا كثيرًا، ولا يُخافُ عليه إلا من ضَعْفِ همتِه. فإذا انضافَ إلى ذلك الفتح همَّةٌ عاليةٌ فذاك السابقُ حقًّا، واحدُ الناسِ في زمانِه، لا يُلحَقُ شأوُه، ولا يُشَقُّ غبارُه. فشتانَ ما بينَ من يتلقَّى أحوالَه ووارِدَاتِه عن الأسماءِ والصفاتِ، وبين من يتلقَّاه عن الأوضاعِ الاصطلاحيةِ والرسومِ أو عن مجردِ ذوقِه وَوَجْدِه، إذا استَحْسَنَ شيئًا قال: هو هو الحقُّ.

ومن شأنِ القومِ أن تنسلخَ نفوسُهم من التدبيرِ والاختيارِ الذي خالفَ

---

(١) رواه مسلم (٥٩١).

تدبيرَ ربِّهم تعالى واختيارَه، بل قد سلَّموا إليه سبحانَه التدبيرَ كلَّه، فلم يزاحِمْ تدبيرُهم تدبيرَه ولا اختيارُهم اختيارَه، لتيقُّنِهم أنَّه الملكُ القاهرُ القابضُ على نَوَاصي الخلقِ، المتولِّي لتدبيرِ أمرِ العالمِ كلِّه، وتيقُّنِهم مع ذلك أنه الحكيمُ في أفعالِه الذي لا تخرجُ أفعالُه عن الحكمةِ والمصلحةِ والرحمةِ. فلم يُدخِلُوا أنفسَهم معه في تدبيرِه لمُلْكِه وتصريفِه أمورَ عبادِه.

قال بعضُ السلفِ: «لو قُرِضَ جِسْمِي بالمقاريضِ كان أحبَّ إليَّ من أن أقولَ لشيءٍ قَضَاه اللهُ: ليتَه لم يقْضِهِ».

فإذا وردتْ عليهم أقدارُه التي تُصيبهم بغيرِ اختيارِهم قابلُوها بمقتضاها من العبوديةِ، وهم فيها على مراتبَ ثلاثةٍ:

- **أحدُها**: الرِّضا عنه فيها والمزيدُ من حُبِّه والشوقُ إليه.
- **المرتبةُ الثانيةُ**: شُكْره عليها كشُكْرِه على النعمِ.
- **والثالثةُ**: للمقْتَصِدينَ وهي مرتبةُ الصَّبْرِ التي إذا نَزَل منها نَزَل إلى نقصانِ الإيمانِ وفواتِه، من التسخطِ والتَشَكِّي، واستبطاءِ الفرجِ، واليأسِ من الروحِ، والجزعِ الذي لا يفيدُ إلا فواتَ الأجرِ وتضاعُفَ المصيبةِ.

وهكذا كلُّ مقامٍ مع الذي فوقَه، كالتوكُّلِ مع الرِّضَا، وكالخوفِ والرجاءِ مع الحبِّ، فإنَّ المقامَ الأولَ لا ينعدمُ بالترقِّي إلى الآخرِ - ولو عُدمَ لخلفَه ضدُّه، وذلك رجوعٌ إلى نقْصِ الطبيعةِ وصفاتِ النفسِ المذمومةِ - وإنما يندرجُ حكمُه في المقامِ الذي هو أعلى منه، فيصيرُ الحكمُ له، كما يندرجُ مقامُ التوكلِ في مقامِ المحبةِ والرِّضَا. وليس هذا كمنازلِ شيرِ الأبدانِ الذي إذا

قَطَعَ منها منزلًا خلَّفه وراءَ ظهرِه، واستقبَلَ المنزلَ الآخرَ معرضًا عن الأوَّلِ تاركًا له. بل هذا بمنزلةِ التَّاجرِ الذي كلَّما باعَ شيئًا من مالِهِ وربحَ فيه، ثمَّ باع الثاني وربحَ، فقد ربحَ بهما معًا، وهكذا أبدًا يكونُ ربحُه في كلِّ صفقةٍ متضاعفًا بانضمامِهِ إلى ما قبلَه، فاربحِ الأوَّلِ اندرجَ في الثاني ولم يُعْدَمْ.

ولنذكرْ لذلك أمثلةً:

• **المثالُ الأوَّلُ: الإرادةُ**، فإنَّ اللهَ جَعلَها من منازلِ صفوةِ عبادِه وأمرَ رسولَه ﷺ أن يصْبِرَ نفسَه مع أهلِها، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل:١٩-٢٠]. وقال تعالى حكايةً عن أوليائِه قولهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٩]، وهذه لامُ التعليلِ الداخلةُ على الغاياتِ المرادةِ، وهي كثيرةٌ في القرآنِ.

فالإرادةُ هي مَركَبُ العبوديةِ، وأساسُ بنائِها الذي لا تقومُ إلا عليه، فلا عبوديَة لمن لا إرادةَ له. بل أكملُ الخَلقِ عبوديَّةً ومحبّةً، وأصحُّهم حالًا، وأقومُهم معرفةً أتمُّهم إرادةً.

والإرادةُ إنَّما تكونُ ناقصةً بحسَبِ نقصانِ المرادِ، فإذا كان مرادُها أشرافَ المرادِ فإرادتُه أشرفَ الإرادتِ. ثمَّ إذا كانتَ الوسيلةُ إليه أجلَّ الوسائلِ، وأنفعا، وأكملَها، فإرادتُها كذلك.

• **المثال الثاني: الزهد.**

قال أبو العباسِ رحِمَه اللهُ: «هو للعوامِّ أيضًا؛ لأنه حبسُ النفسِ عن الملذوذاتِ، وإمساكُها عن فضولِ الشهواتِ، ومخالفةِ دواعي الهوى، وتركُ ما

لا يَعْني من الأشياءِ. وهذا نقصٌ في طريق الخاصة، لأنه تعظيمٌ للدنيا، واحتباسٌ عن انتقادِها، وتعذيبٌ للظاهر بتركِها مع تعلقِ الباطنِ بها. والمبالاةُ بالدنيا عن الرجوعِ إلى ذاتِك، وتضييعُ الوقتِ في منازعةِ نفسِك وشهودِ حِسِّك وبقائك معك. ألا ترى إلى من أعطاه الله الدنيا بحذافيرها كيف قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩]؟ وذلك حيثُ عافى باطنَه من شهودِها، وظاهِرَه من التعلقِ بها، فالزهدُ صرفُ الرغبةِ إليه، وتعلقُ الهمةِ به، والاشتغالُ به عن كلِّ شيءٍ يشغلُ عنه، ليتولَّى هو حَسْمَ هذه الأسبابَ عنك. كما قيل: إن بعضَ المريدين سأل بعضَ المشايخِ فقال: أيها الشيخُ بأيِّ شيءٍ تدفعُ إبليسَ إذا قصَدك بالوسوسةِ؟ فقال الشيخُ: إني لا أعرفُ إبليسَ فأحتاجُ إلى دفعِه، نحن قوم صَرَفْنا هِمَمَنا إليه، فكفَانا ما دونَه. وكما قيل:

تستَّرتُ عن دَهْري بظلِّ جناحِه ... فعيني تَرَى دَهْري وليسَ يَرَاني

فلو تسألُ الأيامَ ما اسْمِي ما دَرَتْ ... وأين مكاني ما عَرَفنَ مكاني»[1]

فيقال: الكلام على هذا من وجوه:

• أحدُها: أن جَعْلَ الزهدِ للعوامِ لما ذَكَره إنما يتمُّ إذا كان الزهدُ ملزومًا لمنازعةِ النفسِ ومجاذبتِها لدواعي الشهوةِ والهوَى، وحينئذٍ فيكون قلبُه مشغولًا بتلك الدَّواعي والجواذبِ، ونفسُه تطالبُه بها، وزهدُه يأمرُه باجتنابِها. ولكنَّ هذه المنازعةُ غيرَ لازمةٍ للزهدِ، وإن كان لا بُد منها في حكمِ الطبيعةِ لتحقيقِ الابتلاءِ والامتحانِ، وليتحقَّقَ تركُ العبدِ حظَّه وهواه لربِّه إيثارًا له على هواه ونفسِه.

---

(١) محاسن المجالس (٧٨-٧٩).

• **الثاني:** أنه لو كانت هذه المنازعةُ وحبسُ النفس عن الملذوذاتِ من لوازمِ الزهدِ لم يكن فيها نقصٌ ولا علةٌ، فإنها من لوازمِ الطبيعةِ وأحكامِ الجِبِلَّةِ.

•• مسألة شريفة:

وقد اختلف أربابُ السلوكِ وأهلُ الطريقِ هنا في هذه المسألةِ، وهي أيهما أفضلُ: من له داعِيةٌ وشهوةٌ، وهو يحبسُها لله، ولا يطيعُها حبًّا له وحياءً منه وخوفًا. أو مَنْ لا داعيةَ له تُنازعُه، بل نفسُه خاليةٌ من تلك الدوَاعي والشهواتِ، قد اطمَأَنتْ إلى ربِّها واشتَغَلتْ به عن غيرِه، وامتلأتْ بحبِّه وإرادتِه، فليس فيها موضعٌ لإرادةِ غيرِه ولا حبِّه؟

فرجَّحَتْ طائفةٌ الأولَ، وقالت: هذا يدلُّ على قوةِ تعلُّقِه وشدةِ محبتِه، فهو يُعاصِي دواعِيَ الطبعِ، ويقهرُها سلطانُ محبتِه وإرادتِه وخوفِه من الله.

واحتجَّ أربابُ القولِ الثاني ـ وهم الذين رجَّحوا من لا منازعةَ في طباعِه، ولا هوًى له يغالبُه ـ بأن قالوا: كيف تَسْتَوي النفسُ المطمئنةُ إلى ربِّها، العاكفةُ على حبِّهِ، التي لا منازعةَ فيها أصلًا ولا داعيةَ تدعُوها إلى الإعراضِ عنه؛ والنفسُ المشغولةُ بمحاربةِ هَواهَا ودواعِيها وجواذِبِها؟

قالوا: وأيضًا ففي الزمنِ الذي يشتغلُ هذا بنفسِه ومحاربةِ هواه وطبعِه يكون صاحبُ النفسِ المطمئنةِ قد قطعَ مراحلَ من سيرِه، وفاز بقربٍ فات صاحبَ المحاربةِ والمنازعةِ.

•• مسألة شريفة أخرى:

وفصلُ الخطاب في هذه المسألةِ يظهرُ بمسألةٍ ترتَضِعُ معها من لُبَانِها، وتخرجُ من مِشْكَاتِها، وهي أن العبدَ إذا كان له حالٌ أو مقامٌ مع الله، ثم نزلَ عنه إلى ذنبٍ ارتكَبَه، ثم تابَ من ذنبِه، هل يعودُ إلى مثلِ ما كان؟ أو لا يعودُ، بل إن رجعَ رجعَ إلى أنزلِ من مقامِه وأنقصِ من رتبتِه؟ أو يعودُ خيرًا مما كان؟

• **فقالت طائفةٌ**: يعودُ بالتوبةِ إلى مثلِ حالِه الأولِ، فإن «**التَّائبَ من الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ له**»[1]، وإذا مُحي أثرُ الذنبِ بالتوبةِ صار وجودُه كعدَمِه، فكأنه لم يكنْ، فيعودُ إلى مثلِ حالِه.

قالوا: وأيضًا فالذنبُ بمنزلةِ المرضِ، والتوبةُ بمنزلةِ العافيةِ. والعبدُ إذا مَرِضَ ثم عُوفي وتكاملتْ عافيتُه رجعَتْ صحتُه إلى ما كانت، بل ربَّما ترجعُ أقوى وأكملَ مما كانتْ عليه، لأنه ربَّما كان معه في حالِ العافيةِ آلامٌ وأسقامٌ كامنةٌ، فإذا اعتلَّ ظهَرتْ تلك الأسقامُ، ثم زالتْ بالعافيةِ جملةً، فتعودُ قوتُه خيرًا مما كانت وأكملَ. وفي مثل هذا قال الشاعرُ:

لعلَّ عتبَك محمـودٌ عواقـبُه ... وربما صحَّت الأجسامُ بالعِلَلِ

وهذا الوجهُ هو أحدُ ما احتجَّ به من قال: إنه يعودُ خيرًا مما كان قبل التوبةِ.

واحتجُّوا أيضًا بأن العبدَ قد يكونُ بعدَ التوبةِ خيرًا منه قبلَ الخطيئةِ، لأن الذنبَ يُحدثُ له من الخوفِ والخشيةِ، والانكسارِ والتذللِ لله، والتضرعِ بين يديهِ، والبكاءِ على خطيئتِه، والندمِ عليها، والأسفِ والإشفاقِ، ما هو من

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠).

أفضلِ أحوالِ العبدِ وأنفعِها له في دنياه وآخرتِه. ولم تكن هذه الأمورُ لتحصُلُ بدونِ أسبابِها، إذ حصولُ الملزومِ بدونِ لازمِه محالٌ.

• **وأما الطائفةُ التي قالتْ:** لا يعودُ إلى مثل ما كان، بل لا بدَّ أن ينقصَ عن حالِه، فاحتجُّوا بأن الجنايةَ تُوجبُ الوحشةَ وزوالَ المحبةِ ونقصَ العبوديةِ بلا ريبٍ، فليس العبدُ الموفرُ أوقاتِه على طاعةِ سيِّدِه كالعبدِ المفرطِ في حقوقِه، وهذا مما لا يمكنُ جحدهُ ومكابرتُه. فإذا تاب إلى ربِّه ورجعَ إليه أثرتْ توبتُه تركَ مؤاخذتِه بالذنبِ والعفْوَ عنه، وأما مقامُ القربِ والمحبةِ، فهيهاتَ أن يعودَ!

قالوا: ولأنَّ هذا في زمنِ اشتغالِه بالمعصيةِ قد فاته السيرُ إلى الله. فلو كان واقفًا في موضعِه لفاتَه التقدمُ، فكيفَ وهو في زمنِ المعصيةِ كان سيرُه إلى وراءَ وراءَ؟ فإذا تابَ واستقبلَ سيرَه، فإنه يحتاجُ إلى سيرٍ جديدٍ، وقَطْعِ مسافةٍ حتى يَصِلَ إلى الموضعِ الذي تأخَّر منه.

وجَرَتْ هذه المسألةُ بحضرةِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَة، فسمعتُه يحكِي هذه الأقوالَ الثلاثةَ حكايةً مجردةً. فإما سألتُه، وإما سُئِلَ عن الصوابِ منها، فقال: الصوابُ أن من التائبينَ من يعودُ إلى مثلِ حالِه، ومنهم من يعودُ أكملَ مما كان، ومنهم من يعودُ أنقصَ مما كان. فإن كان بعدَ التوبةِ خيرًا مما كان قبلَ الخطيئةِ، وأشدَّ حذرًا، وأعظمَ تشميرًا، وأعظمَ ذلًّا وخشيةً وإنابةً، عاد إلى أرفَعِ مما كان. وإن كان قبلَ الخطيئةِ أكملَ في هذه الأمورِ، ولم يعُدْ بعدَ التوبةِ إليها، عاد إلى أنقصَ مما كان عليه. وإن كان بعدَ التوبةِ مثلَ ما كان قبلَ الخطيئةِ رجعَ إلى مثلِ منزلتِه. هذا معنى كلامِه رضي اللهُ عنه.

•• مسألة أخرى:

قلتُ: وههُنا مسألةٌ، هذا الموضعُ أخصُّ المواضِع ببيانِها. هي أن التائبَ إذا تاب إلى الله توبةً نصوحًا، فهل تمُحَى تلك السيئاتُ، ويذهبُ لا له ولا عليه، أو إذا مُحِيت أُثبِتَ له مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةٌ؟

هذا مما اختلفَ الناسُ فيه من المفسرين وغيرِهم قديمًا وحديثًا.

فالصوابُ ـ إن شاء اللهُ ـ في هذه المسألة أن يقالَ: لا ريبَ أن الذنبَ نفسَه لا ينقلبُ حسنةً، والحسنةُ إنما هي أمرٌ وُجُودِيٌّ يقتَضِي ثوابًا، ولهذا كان تاركُ المنهيات إنما يُثابُ على كفِّ نفسِه وحَبْسِها عن مواقعةِ المنهيِّ، وذلك الكفُّ والحبسُ أمرٌ وجوديٌّ هو متعلَّقُ الثوابِ. وأما من لم يخطُرْ ببالِه الذنبُ أصلًا، ولم يُحدِّثْ به نفسَه، فهذا كيف يثابُ على تركِه؟ ولو أثيبَ مثلُ هذا على تركِ هذا الذنبِ لكان مثابًا على تركِ ذنوبِ العالم التي لا تخطرُ ببالِه، وذلك أضعافُ حسناتِه بما لا يُحصَى، فإن التركَ مسْتَصْحَبٌ معه، والمتروكُ لا يَنْحَصِرُ ولا ينضبطُ، فهل يثابُ على ذلك كلِّه؟ هذا مما لا يُتوهمُ. وإذا كانت الحسنةُ لا بد أن تكون أمرًا وجوديًا، فالتائبُ من الذنوبِ التي قد عَمِلها قد قارنَ كلَّ ذنبٍ منها ندمًا عليه، وكفَّ نفسِه عنه، وعزمَه على تركِ معاودتِه، وهذه حسناتٌ بلا ريبٍ وقد محَتِ التوبةُ أثرَ الذنبِ، وخلفَه هذا الندمُ والعزمُ، وهو حسنةٌ، فقد بُدِّلتْ تلك السيئةُ حسنةً. هذا معنى قولِ بعضِ المفسرينَ: «يجعلُ مكانَ السيئةِ التوبةَ، والحسنةُ مع التوبةِ». فإذا كانتْ كلُّ سيئةٍ من سيئاتِه قد تابَ منها، فتوبتُه منها حسنةٌ حلَّتْ مكانَها، فهذا معنى التبديلِ، لا أن السيئةَ نفسَها تنقلبُ حسنةً. ولهذا قال بعضُ المفسرينَ في هذه

الآيةِ: «يُعطيهم بالندمِ على كلِّ سيئةٍ أساؤُوها حسنةً».

الوجه الثالث: أن يقالَ: قولُه: «الزهدُ تعظيمٌ للدنيا، واحتباسٌ عن انتقادِها» إلى آخرِ الفصلِ، فالزهدُ لا يدل على هذا التعظيمِ ولا يستلزمُ، وإن كان من عوارضِ غلباتِ الطباعِ التي تُذمُّ مساكنتُها وانحجابُ القلبِ بها. بل زهدُه فيها دليلٌ على خروجِ عظمتِها من قلبِه،وقلةِ مبالاتِه بها، وتركِ الاهتبالِ بشأنِها؛ فكيف يكونُ هذا نقصًا بوجهٍ؟ بلى، النقصُ في الزهدِ يكونُ من أحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ:

إما أن يزهَدَ فيما ينفعُه منها، ويكونُ قوةً له على سيرِه، ومعونةً له على سفرِه، فهذا نقصٌ.

الثاني: أن يكونَ زهدُه مشوبًا إما بنوعِ عجزٍ أو ملالةٍ وسآمةٍ وتَأذِّيهِ بها وبأهلِها، فهذا زهدٌ ناقصٌ.

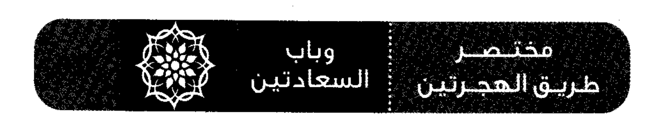
الثالث: أن يشهدَ زهدَه ويلحظَه، ولا يفْنَى عنه بما زَهِدَ لأجلِه؛ فهذا نقصٌ أيضًا.

الوجهُ الرابعُ: أن الزهدَ على أربعةِ أقسامٍ:

أحدُها: فرضٌ على كلِّ مسلم، وهو الزهدُ في الحرامِ.

الثاني: زهدٌ مستحَبٌّ، وهو على درجاتٍ في الاستحبابِ بحسَبِ المزهودِ فيه.

الثالث: زهدُ الداخلينَ في هذا الشأنِ، وهم المشمرونَ في السيرِ إلى اللهِ. وهو نوعان:



أحدُهما: الزهدُ في الدنيا جملةً، وليس المرادُ تخليتَها من اليدِ ولا إخراجَها وقعودَه صفرًا منها، وإنما المرادُ إخراجُها من قلبِه بالكليةِ، فلا يلتفتُ إليها، ولا يدعُها تُساكنُ قلبَه وإن كانتْ في يدِه.

وهذا كحالِ الخلفاءِ الراشدينَ، وعمرَ بنِ العزيزِ الذي يُضربُ بزهدِه المثلُ، مع أن خزائنَ الأموالِ تحتَ يدِه، بل كحالِ سيدِ ولدِ آدم ﷺ حين فُتِحَ عليه من الدنيا ما فُتِحَ، ولا يزيدُه ذلك إلا زهدًا فيها.

والذي يصحِّحُ هذا الزهدَ ثلاثةُ أشياءَ:

أحدُها: علمُ العبدِ أنها ظلٌّ زائلٌ، وخيالٌ زائرٌ، وأنها كما قال تعالى فيها: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠].

الثاني: علمُه أن وراءَها دارًا أعظمَ منها قدرًا وأجلَّ خطرًا، وهي دارُ البقاءِ؛ وأن نسبتَها إليها كما قال النبيُّ ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرةِ إلا كما يُدخلُ أحدُكم إصبعَه في اليمِّ، فلينظُرْ بمَ ترجعُ؟**»[1].

الثالثُ: معرفتُه أن زهدَه فيها لا يمنعُه شيئًا كُتِبَ له منها، وأن حرصَه عليها لا يجلبُ له ما لم يُقْضَ له منها.

فهذه الأمور الثلاثة تُسهِّلُ على العبدِ الزهدَ فيها، وتُثبتُ قدمَه في مقامِه. واللهُ الموفقُ لمن يشاءُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨).

النوع الثاني: الزهدُ في نفسِك، وهو أصعبُ الأقسامِ وأشقُّها، وهو نوعانِ:

أحدُهما وسيلةٌ وبدايةٌ: وهو أن تُميتَها، فلا تُبقي لها عندَك من القدرِ شيئًا، فلا تَغْضَبْ لها، ولا ترضَى لها، ولا تنتصِرْ لها، ولا تنتقِمْ لها.

وهذا الزهدُ هو أولُ نقدةٍ من مَهْرِ الحبِّ، فيا مفلسُ تأخَّرْ!

والنوع الثاني: غايةٌ وكمال: وهو أن تبذُلَها للمحبوبِ جملةً بحيثُ لا تَسْتَبقي منها شيئًا، بل تزهدُ فيها زهدَ المحبِّ في قَدْرٍ خسيسٍ من مالِه، قد تعلَّقت رغبةُ محبوبِه به، فهل يجدُ من قلبِه رغبةً في إمساكِ ذلك القدرِ وحبسِه عن محبوبِه؟ فهكذا زهدُ المحبِّ الصادقِ في نفسِه، قد خرجَ عنها، وسلَّمها لربِّه، فهو يبذلُها له دائمًا بِتَعَرضٍ منه لقبولِها.

وإذا عُرف هذا فكيف يُدَّعىَ أن الزهدَ من منازلِ العوامِّ وأنه نقصٌ في طريقِ الخاصةِ؟ وهل الكمالُ إلا في الزهدِ، وما النقصُ إلا في نقصانِه؟ والله الموفق للصواب.

- **المثال الثالث: التوكلُ.**

وهو من لوازمِ الإيمانِ ومقتضياتِه. قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]. فجعلَ التوكلَ شرطًا في الإيمانِ، فدلَّ على انتفاءِ الإيمانِ عندَ انتفاءِ التوكلِ. وفي الآيةِ الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، فجعل دليلَ صحةِ الإسلامِ التوكلَ. وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢]، فذكرُ اسمِ الإيمانِ هاهنا دونَ سائرِ أسمائِهم دليلٌ على استدعاءِ الإيمانِ للتوكلِ، وأن قوةَ

التوكلِ وضَعْفَه بحسَبِ قوةِ الإيمانِ وضعفِه. فكلَّما قَوِيَ إيمانُ العبدِ كان توكُّلُه أقوَى، وإذا ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التوكلُ، وإذا كان التوكلُ ضعيفًا فهو دليلٌ على ضعفِ الإيمانِ ولا بدّ.

واللهُ تعالى يجمعُ بين التوكلِ والعبادةِ، وبينَ التوكلِ والإيمانِ، وبينَ التوكلِ والتقْوَى، وبين التوكلِ والإسلامِ، وبين التوكلِ والهدايةِ.

فأما التوكلُ والعبادةُ، فقد جمعَ سبحانَه بينهما في قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣].

وأما الجمعُ بين الإيمانِ والتوكلِ، ففي مثلِ قولِه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك:٢٩].

وأما الجمعُ بين التوكلِ والإسلامِ، ففي قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

وأما الجمعُ بين التقوى والتوكلِ، ففي مثلِ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:١-٣].

وأما الجمعُ بين التوكلِ والهدايةِ، ففي قولِ الرسلِ صلواتُ الله وسلامُه عليهم لقومِهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢]. وقال عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩]، فأمر سبحانَه رسولَه بالتوكلِ عليه، وعقَّبَ هذا الأمرَ بما هو

موجبٌ للتوكلِ، مصحِّحٌ له، مستدعٍ لثبوتِه وتحقُّقِه، وهو قولُه: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾. فإن كونَ العبدِ على الحقِّ يقتضي تحقيقَ مقامِ التوكلِ على الله، والاكتفاءَ به، والإيواءَ إلى ركنِه الشديدِ.

فصاحبُ الحقِّ ـ لعلمِه بالحقِّ ولثقتِه بأن اللهَ وليُّ الحقِّ وناصرُه ـ مضطرٌّ إلى توكُّلِه على الله، لا يجدُ بدًا من توكُّلِه. فإن التوكلَ يجمعُ أصلينِ: علمِ القلبِ وعَمَلِه. أما علمُه، فيقينُه بكفايةِ وكيلِه، وكمالِ قيامِه بما وكلَه إليه، وأن غيرَه لا يقومُ مقامَه في ذلك. وأما عمَلُه، فسكونُه إلى وكيلِه، وطمأنينتُه إليه، وتفويضُه وتسليمُه أمرَه إليه، ورضاه بتصرفِه له فوقَ رِضَاه بتصرفِه هو لنفسِه. فبهذينِ الأصلينِ يتحققُ التوكلُ، وهما جِمَاعُه، وإن كان التوكلُ أدخلَ في عملِ القلبِ من علمِه، كما قال الإمامُ أحمد: «التوكلُ عملُ القلبِ»[1]؛ ولكنْ لا بدَّ فيه من العلمِ، وهو إمَّا شرطٌ فيه، وإمَّا جزءٌ من ماهيتِه.

والمقصودُ أن القلبَ متى كان على الحقِّ كان أعظمَ لطمأنينتِه، ووثوقِه بأنَّ اللهَ وليُّه وناصرُه، وسكونِه إليه، فما له أن لا يتوكلَ على ربِّه؟ وإذا كان على الباطلِ علمًا وعملًا أو أحدِهما لم يكنْ مطمئنًا واثقًا بربِّه، فإنه لا ضمانَ له عليه، ولا عهدَ له عندَه؛ فإن اللهَ سبحانَه لا يتولَّى الباطلَ ولا ينصُرُه، ولا يُنسبُ إليه بوجْهٍ، فهو منقطعُ النسبةِ إليه بالكليةِ.

فتدبَّرْ هذا السِّرَّ العظيمَ في اقترانِ التوكلِ والكفايةِ بالحقِّ والهُدَى، وارتباطَ أحدِهما بالآخرِ. ولو لم يكنْ في هذه الرسالةِ إلا هذه الفائدةُ السريةُ

---

(١) نقله شيخ الإسلام عن القشيري في الاستقامة (١/ ٢٠٩).

لكانتْ حقيقة أن تُودَعَ في خزانةِ القلبِ؛ لشدةِ الحاجةِ إليها. واللهُ المستعانُ وعليه التكلانُ.

فظهرَ أن التوكلَ أصلٌ لجميع مقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، ولجميعِ أعمالِ الإسلامِ، وأن منزلتَه منها منزلةُ الجسدِ من الرأسِ. فكما لا يقومُ الرأسُ إلا على البدنِ، فكذلك لا يقومُ الإيمانُ ومقاماتُه وأعمالُه إلا على ساقِ التوكلِ. واللهُ أعلمُ.

- **المثالُ الرابعُ: الصبرُ.**

والكلامُ على هذا من وجوهٍ:

أحدُها: أن يقالَ: الصبرُ نصفُ الدينِ، فإن الإيمانَ نصفانِ: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [سبأ:١٩]، وقال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيدِه، لا يَقْضِي اللهُ للمؤمنِ قضاءً إلا كان خيرًا له: إن أصابتْه سرَّاءُ شكرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صبرَ، فكان خيرًا له. ليس ذلك إلا للمؤمنِ**»[1]، فمنازلُ الإيمانِ كلِّها بين الصبرِ والشكرِ. والذي يوضِّحُ هذا:

الوجهُ الثاني: وهو أن العبدَ لا يخلُو قطُّ من أن يكونَ في نعمةٍ أو بليةٍ. فإن كان في نعمةٍ ففرضُها الشكرُ والصبرُ. أما الشكرُ فهو قيدُها وثباتُها والكفيلُ بمزيدِها. وأما الصبرُ فعن مباشرةِ الأسبابِ التي تسلُبُها، وعلى القيامِ بالأسبابِ التي تحفظُها؛ فهو أحوجُ إلى الصبرِ فيها من حاجةِ المبتلَى.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

الوجهُ الثالثُ: أن الصبرَ ثلاثةُ أقسامٍ: إما صبرٌ عن المعصيةِ فلا يرتكبُها، وإما صبرٌ على الطاعةِ حتى يؤدِيهَا، وإما صبرٌ على البليةِ فلا يشكُو ربَّه فيها. وإذا كان العبدُ لا بد له من واحدٍ من هذه الثلاثِ، فالصبرُ لازمٌ له أبدًا، لا خروجَ له عنه البتةَ.

الوجهُ الرابعُ: أن اللهَ تعالى ذكرَ الصبرَ في كتابه في نحوِ تسعينَ موضعًا، فمرَّةً أمر به، ومرَّةً أثنَى على أهلِه، ومرَّةً أمرَ نبيَّه أن يُبشِّرَهم، ومرَّةً جعلَه شرطًا في حصولِ النصرِ والكفايةِ، ومرَّةً أخبرَ أنَّه مع أهلِهِ. وأثنَى به على صفوتِهِ من العالمِينَ، وهم أنبيَاؤُه ورسلُه، فقال عن نبيِّه أيوبَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]، وقال تعالى لخاتَمِ أنبيائِه ورسُلِه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وهذا يدلُّ على أن الصَّبْرَ من أجلِّ مقاماتِ الإيمانِ، وأن أخصَّ الناسِ باللهِ وأوْلاهم به أشدُّهم قيامًا وتحققًا به، وأن الخاصَّة أحوجُ إليه من العامةِ.

الوجهُ الخامسُ: أن الصبرَ سببٌ في حصولِ كلِّ كمالٍ ممكنٍ، فأكملُ الخلقِ أصبرُهم، ولم يتخلفْ عن أحدٍ كمالُه الممكنُ إلا من ضعفِ صبرِه.

●● قاعدة: أسباب الصبر عن المعاصي

الصبرُ عن المعصيةِ ينشأُ من أسبابٍ عديدةٍ:

أحدُها: علمُ العبد بقُبْحِها ورذالتِها ودناءَتِها.

السببُ الثاني: الحياءُ من اللهِ عزَّ وجلَّ.

السببُ الثالثُ: مراعاةُ نِعَمِه عليك وإحسانِه إليك.

السببُ الرابع: خوفُ اللهِ وخشيةُ عقابِه.

السببُ الخامسُ: محبةُ اللهِ سبحانَه.

السببُ السادسُ: شرفُ النفسِ وزكاؤُها وفضلُها.

السببُ السابعُ: قوةُ العلمِ بسوءِ عاقبةِ المعصيةِ.

السببُ التاسعُ: مجانبةُ الفضولِ في مطعَمِه ومشربِه وملبَسِه ومنامِه واجتماعِه بالناسِ.

السببُ العاشرُ: وهو الجامعُ لهذه الأسبابِ كلِّها، وهو: ثباتُ شجرةِ الإيمانِ في القلبِ.

•• أسباب الصبر على الطاعات

والصبر على الطاعةِ ينشأُ من معرفةِ هذه الأسبابِ ومن معرفةِ ما تجلبُه الطاعةُ من العواقبِ الحميدةِ والآثارِ الجميلةِ. ومن أقوى أسبابِها: الإيمانُ والمحبةُ، فكلما قَوِيَ داعي الإيمانِ والمحبةِ في القلبِ كانت استجابتُه للطاعةِ بحسَبِه.

•• أسباب الصبر على البلاء

والصبرُ على البلاء ينشأ من أسبابٍ عديدةٍ:

أحدُها: شهودُ جزائِها وثوابِها.

الثاني: شهودُ تكفيرِها للسيئاتِ ومحوِها لها.

الثالثُ: شهودُ القدَرِ السابقِ الجاري بها.

الرابعُ: شهودُه حقَّ الله عليه في تلك البلْوى، وواجبَه فيها، وهو الصبرُ بلا خلافٍ بين الأمّةِ.

الخامسُ: شهودُ ترتُّبِها عليه بذنْبِه.

السادسُ: أن يعلَمَ أن اللهَ قد ارتضَاها له واختارَها وقَسَمَها، وأن العبوديةَ تقتَضِي رِضَاه بما رَضِيَ له به سيدُه ومولاه.

السابعُ: أن يعلَمَ أن هذه المصيبةَ هي دواءٌ نافعٌ ساقَه إليه الطبيبُ العليمُ بمصلحتِه الرحيمُ به.

الثامنُ: أن يعلَمَ أن في عُقْبَى هذا الدواءِ من الشفاءِ والعافيةِ والصحةِ وزوالِ الألم ما لا يحصلُ بدونِه.

التاسعُ: أن يعلَمَ أن المصيبةَ ما جاءتْ لتُهلِكَه وتقتُلَه، وإنما جاءتْ لتمتَحِنَ صبرَه وتبتَلِيَه.

العاشرُ: أن يعلمَ أن اللهَ سبحانه يربي عبدَه على السراءِ والضراءِ، والنعمةِ والبلاءِ، فيستخرجُ منه عبوديتَه في جميعِ الأحوالِ.

- **المثال الخامسُ: الحزنُ.**

اعلمْ أن الحزنَ من عَوَارضِ الطريقِ، ليس من مقاماتِ الإيمانِ ولا من منازلِ السائرينَ. ولهذا لم يأمر اللهُ به في موضعٍ قطّ، ولا أثنَى عليه، ولا رتَّبَ عليه جزاءً وثوابًا. بل نَهى سبحانه عنه في غيرِ موضعٍ، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٦]. وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. فالحزنُ هو بليةٌ من البَلَايا التي نسألُ اللهَ دفعَها وكشفَها، ولهذا يقولُ أهلُ الجنةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤]، فحمدُوه سبحانه على أن أذهبَ عنهم تلك البليةَ ونجَّاهم منها.

وفي الصحيحِ عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقولُ في دعائِه: «**اللهم إني أعوذُ بك من الهمِّ والحزَنِ، والعجزِ والكسلِ، والجبنِ والبخْلِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ وغلبةِ الرِجالِ**»[1].

فالحزنُ مرضٌ من أمراضِ القلبِ يمنعُه من نهوضِه وسيرِه وتشميرِه، والثوابُ عليه ثوابٌ على المصائبِ التي يُبتلَى العبدُ بها بغيرِ اختيارِه، كالمرضِ والألمِ ونحوِهما. وأما أن يكونَ عبادةً مأمورًا بتحصِيلِها وطلَبِها فلا.

ولكن يُحمَدُ في الحزنِ سببُه ومصدَرُه ولازمُه، لا لذاتِه. فإن المؤمنَ إما أن يحزنَ على تفريطِه وتقصيرِه في خدمَةِ ربِّه وعبوديتِه، وإما أن يحزنَ على تورطِه في مخالفتِه ومعصيتِه وضياعِ أيامِه وأوقاتِه. وهذا يدلُّ على صحةِ الإيمانِ في قلبِه وعلى حياتِه، حيثُ شعرَ قلبُه بمثلِ هذا الألمِ، فحَزِنَ عليه. ولو كان قلبُه ميتًا لم يحسّ بذلك، ولم يحزَنْ، ولم يتألَّمْ، فما لجُرحٍ بميتٍ إيلامُ. وكلما كان قلبُه أشدَّ حياةً كان شعورُه بهذا الألمِ أقوى، ولكنَّ الحزنَ لا يُجدِي عليه، فإنه يُضعِفُه، كما تقدَّم. بل الذي ينفَعُه أن يستقْبِلَ السيرَ، ويجدَّ، ويشمِّرَ، ويبذلَ جُهْدَه.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٣)، ومسلم (٢٧٠٦). وضلع الدين: ثقله.

• **والمثالُ السادسُ: الخوفُ.**

والكلامُ على الخوفِ من وجوهٍ:

أحدُها: أن الخوفَ أحدُ أركانِ الإيمانِ والإحسانِ الثلاثةِ التي عليها مدارُ مقاماتِ السالكينَ جميعِها، وهي: الخوفُ، والرجاءُ، والمحبَّةُ. وقد ذكَره سبحانَه في قولِه: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧].

وقد أمرَ سبحانَه بالخوفِ منه في قولِه: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، فجعلَ الخوفَ منه شرطًا في تحقيقِ الإيمانِ.

وقد أثنَى سبحانَه على أقربِ عبادِه إليه بالخوفِ منه، فقال تعالى عن أنبيائِه بَعْدَ أن أثنَى عليهم ومدَحَهم: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء:٩٠]. فالرغَبُ: الرجاءُ والرغبةُ، والرهَبُ: الخوفُ والخشيةُ. وقال عن ملائِكَتِه الذين قد آمنهم من عذابِه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠].

وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«إني أعلمُكُم بالله وأشدُّكم له خشيةً»**[1]. وفي لفظٍ آخرَ: **«إني أخوفُكُم لله وأعلمُكم بما أتَّقي»**[2]. وكان ﷺ يصلِّي ولصدرِه أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ من البكاءِ. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ

(١) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٢) رواه مسلم (١١١٠).

مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:٢٨]، فكُلَّما كان العبدُ بالله أعلمَ كان له أخوفَ. قال ابنُ مسعودٍ: «كفى بخشيةِ الله علمًا»[1]. ونقصانُ الخوفِ من الله إنما هو لنقصانِ معرفةِ العبدِ به، فأعرفُ الناسِ أخشاهم لله. ومن عرفَ اللهَ اشتدَّ حياؤُه منه وخوفُه له وحبُّه له، وكلما ازدادَ معرفةً ازدادَ حياءً وخوفًا وحبًّا.

فالخوفُ من أجلِّ منازلِ الطريقِ، وخوفُ الخاصةِ أعظمُ من خوفِ العامةِ، وهم إليه أحوجُ، وهو بهم ألصَقُ، ولهم ألزمُ. فإن العبدَ إما أن يكونَ مستقيمًا، أو مائلًا عن الاستقامةِ. فإن كان مائلًا عن الاستقامةِ فخوفُه من العقوبةِ على ميلِه، ولا يصحُّ الإيمانُ إلا بهذا الخوفِ. وهو ينشأُ من ثلاثةِ أمورٍ:

أحدُها: معرفتُه بالجنايةِ وقُبْحِها.

والثاني: تصديقُ الوعيدِ وأن اللهَ رتَّبَ على المعصيةِ عقوبَتَها.

والثالث: أنه لا يعلمُ لعلَّه يُمنَعُ من التوبةِ ويُحالُ بينَه وبينَها إذا ارتكبَ الذنبَ.

فبهذه الأمورِ الثلاثةِ يتمُّ له الخوفُ، وبحسَبِ قوتِها وضعفِها تكونُ قوةُ الخوفِ وضعفُه.

•• في المحبة

الشيءُ إذا كان من الأمورِ الوجدانيةِ الذَّوْقِيَّةِ التي إنما تُعلَمُ بآثارِها وعلاماتِها، وكان مما يقعُ فيه التفاوتُ بالشدةِ والضعفِ، وكان له لوازمُ وآثارٌ

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمة (١٦/ ١٨٧)..

وعلاماتٌ متعددةٌ اختلفتْ العباراتُ عنه بحسَبِ اختلافِ هذه الأشياءِ. وهذا شأنُ المحبةِ، فإنها ليستْ بحقيقةٍ معايَنةٍ تُرى بالأبصارِ، فيشتركُ الواصفونَ لها في الصفةِ. وهي في نفسِها متفاوتةٌ أعظمَ تفاوتٍ، ما بين العلاقةِ التي هي تعلقُ القلبِ بالمحبوبِ، والخُلّةُ التي هي أعلى مراتبِ الحبِّ؛ وبينهما درجاتٌ متفاوتةٌ تفاوتًا لا ينحصِرُ. ولها آثارٌ تُوجبُها، وعلاماتٌ تدلُّ عليها، فكلٌّ أدركَ بعضَ آثارِها أو بعضَ علاماتِها، فعبَّر بحسَبِ ما أدركَه. وهي وراءَ ذلك كلِّه: ليس اسمُها كمُسَمَّاها، ولا لفظُها مبيِّنٌ لمعناها.

- **والمحبةُ المشتركةُ ثلاثةُ أنواعٍ:**

أحدُها: محبةٌ طبيعيةٌ مشتركةٌ، كمحبةِ الجائعِ للطَّعامِ، والظمآنِ للماءِ، وغيرِ ذلك. وهذه لا تسلتزمُ التعظيمَ.

والنوع الثاني: محبةُ رحمةٍ وإشفاقٍ، كمحبةِ الوالدِ لولدِه الطفلِ، ونحوِها. وهذه أيضًا لا تستلزمُ التعظيمَ.

والنوعُ الثالثُ: محبةُ أنسٍ وإلفٍ، وهي محبةُ المشتركينَ في صناعةٍ أو علمٍ أو مرافقةٍ أو تجارةٍ أو سفرٍ لبعضِهم بعضًا، وكمحبةِ الإخوةِ، بعضِهم بعضًا.

فهذه الأنواعُ الثلاثةُ هي المحبةُ التي تصلُحُ للخلقِ بعضِهم من بعضٍ، ووجودُها فيهم لا يكونُ شِرْكًا في محبةِ الله. ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسلَ[1]، وكان يحبُّ نساءَه، وكانت عائشةُ رضي الله عنها أحبَّهنَّ إليه[2]. وكان يحبُّ أصحابَه، وأحَبُّهم إليه الصدِّيقُ رضي الله عنه.

---

(١) رواه البخاري (٥٤٣١).

(٢) نصه في صحيح البخاري (٦٣٦٢)، وصحيح مسلم (٢٣٨٤).

وأما المحبةُ الخاصةُ التي لا تصلحُ إلا لله وحدَه، ومتى أحبَّ العبدُ بها غيرَه كان شركًا لا يغفرُه اللهُ، فهي محبةُ العبوديةِ المستلزمةِ للذلِّ والخضوعِ، والتَّعْظيمِ، وكمالِ الطاعةِ، وإيثارُه على غيرِه. فهذه المحبةُ لا يجوزُ تعلُّقُها بغيرِ اللهِ أصلًا، وهي التي سَوَّى المشركونَ بين آلهتهم وبينَ الله فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]. وأصحُّ القولينِ أن المعنَى: يحبونَهم كما يحبونَ الله، فيُسَوُّون بينَ الله وبين أندادِهم في الحبِّ. ثم نَفَى ذلك عن المؤمنينَ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، فإنَّ الذين آمنوا أخلَصُوا حبَّهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يُخلِصُوه لله.

والمقصودُ من الخلقِ والأمرِ إنما هو هذه المحبةُ، وهي أولُ دعوةِ الرسلِ. وآخرُ كلامِ العبدِ المؤمنِ الذي إذا ماتَ عليه دخلَ الجنةَ اعترافُه وإقرارُه بهذه المحبةِ، وإفرادُ الربِّ تعالى بها. فهو أولُ ما يدخلُ به في الإسلامِ، وآخرُ ما يخرجُ به من الدُّنيا إلى الله. وجميعُ الأعمالِ كالأدواتِ والآلاتِ لها، وجميعُ المقاماتِ وسائلُ إليها، وأسبابٌ لتحصيلِها وتكميلِها وتحصينِها من الشوائبِ والعللِ. فهي قطبُ رحَى السعادةِ، وروحُ الإيمانِ، وساقُ شجرةِ الإسلامِ. ولأجلِها أنزلَ اللهُ الكتابَ والحديدَ: فالكتابُ هادٍ إليها، ودالٌّ عليها، ومفصِّلٌ لها. والحديدُ لمن خرجَ عنها، وأشركَ فيها مع الله غيرَه. ولأجلِها خُلقَتِ الجنةُ والنارُ: فالجنةُ دارٌ أهلُها الذين أخلَصُوها لله وحدَه، فأخلَصَهم لها؛ والنارُ دارُ من أشركَ فيها مع الله غيرَه، وسوَّى بينَه وبينَ الله فيها، كما أخبرَ تعالى عن أهلِها أنهم يقولونَ في النارِ لآلهتِهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى

ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].

وهذه التسويةُ لم تكنْ منهم في الأفعالِ والصِّفاتِ بحيثُ اعتقدُوا أنَّها مُسَاوِيةٌ لله في أفعالِه وصفاتِه، وإنها كانتْ تسويةً منهم بينَ الله وبينَها في المحبةِ والعبوديةِ فقط، مع إقرارِهم بالفرقِ بين الله وبينَها؛ فتصحِيحُ هذه المسألةِ هو تصحيحُ شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ.

•• حدٌّ آخرَ للمحبةِ

وقيل: «المحبةُ إيثارُ المحبوبِ على غيرِه».

وهذا الحدُّ أيضًا من جِنْسِ ما قبلَه، فإنَّ إيثارَ المحبوبِ على غيرِه موجبُ المحبةِ ومقتضَاهَا، فإذَا استقرَّتِ المحبةُ في القلبِ استدْعَتْ من المحبِّ إيثارَ محبوبِهِ على غيرِه، وهذا الإيثارُ علامةُ ثبوتِها وصِحَّتِها.

•• والدينُ كلُّه والمعاملةُ في الإيثارِ

وفي الدعاءِ المرفوعِ: **«اللهُمَّ زِدْنَا ولا تنقصْنَا، وأعطِنا ولا تَحْرِمْنا، وأكرِمْنَا ولا تُهِنَّا، وآثِرْنَا ولا تُؤْثِرْ علينا، وأرضِنا وارضَ عنا»**[1].

وقيل: من آثرَ اللهَ على غيرِه آثرَه اللهُ على غيرِه.

•• حدٌّ آخرَ للمحبةِ

وقيل: المحبةُ موافقةُ المحبوبِ فيما ساءَ وسَرَّ، ونفع وضرّ، كما قيل:

وَأَهَنْتِنِي فَأَهَنْتُ نَفْسِي صاغرًا ... ما مَن يُهون عليكِ ممَّن أُكـرِمُ

(١) رواه الترمذي (٣١٧٣)، والنسائي في الكبرى (١٣٤٨).

فيقالُ: وهذا الحدُّ أيضًا من جِنْسِ ما قبلَه، فإنَّ موافقةَ المحبوبِ من موجباتِ المحبةِ، وثمراتِها، وليستْ نفسَ المحبةِ؛ بل المحبةُ تستَدْعي الموافقةَ، وكلَّما كانتِ المحبةُ أقوَى كانت الموافقةُ أتمَّ. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

ولكنْ هاهنا مسألةٌ يغلطُ فيها كثيرٌ من المدَّعينَ للحبِّ. وهي أنَّ موافقةَ المحبوبِ في مرادِه ليس المعنيُّ بها مرادَه الخَلْقِيِّ الكونيِّ، فإنَّ كلَّ الكونِ مرادُه، وكلُّ ما يفعلُه الخلائقُ فهو موجبُ مشيئتِه وإرادتِه الكونيةِ. فلو كانت موافقتُه في هذا المرادِ هي محبتُه لم يكنْ له عدوٌّ أصلًا، وكانت الشياطينُ والكفَّارُ والمشركونَ عبَّادُ الأوثانِ والشمسُ والقمرُ أولياءَه وأحبابَه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وسمعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ ـ قدَّس اللهُ روحَه ـ يقولُ: قال لي بعضُ شيوخِ هؤلاءِ: المحبَّة نارٌ تحرقُ من القلبِ ما سوى مرادِ المحبوبِ، والكونُ كلُّه مرادُه، فأيُّ شيءٍ أُبغِضُ منه؟ قال: فقلتُ له: فإذا كان المحبوبُ قد أبغضَ بعضَ ما في الكونِ، فأبغضَ قومًا ولعنَهم ومقتَهم وعادَاهم؛ فأحببتَهم أنتَ ووالَيتَهم، تكونُ مواليًا للمحبوبِ موافقًا له، أو مخالفًا له معاديًا له؟ قال: فكأنما أُلقِمَ حجرًا.

وقد قيل: فيها حدودٌ أكثرُ من هذا، وكلُّ هذا تعنٍّ. ولا تُوصَفُ المحبةُ ولا تُحدُّ بحدٍّ أوضحَ من المحبةِ، ولا أقربَ إلى الفهمِ من لفظِها. وأما ذكرُ الحدودِ والتعريفاتِ، فإنما يكونُ عند حصولِ الإشكالِ والاستعجامِ على الفهْمِ، فإذا زالَ الإشكالُ وعُدِمَ الاستعجامُ فلا حاجةَ إلى ذكرِ الحدودِ

والتعريفاتِ، كما قال بعضُ العارفينَ[1]: إنَّ كلَّ لفظٍ يعبَّر به عن الشيءِ فلا بد أن يكونَ ألطفَ وأرقَّ منه. والمحبةُ ألطفُ وأرقُّ من كلِّ ما يُعبرُ به عنها.

•• في مراتبِ المكلَّفين في الدارِ الآخرةِ وطبقاتِهم فيها

وهم ثمانِ عشرةَ طبقةً:

• **الطبقةُ الأولى وهي العُليا على الإطلاقِ:** مرتبةُ الرسالةِ. فأكرمُ الخلقِ على الله وأخصُّهم بالزُّلفَى لديْه رسلُه، وهم المصطَفَوْنَ من عبادِه الذين سلَّم عليهم في العالمينَ، كما قال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٨١].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩].

ويَكْفِي في فَضْلِهم وشَرَفِهم أن اللهَ سبحانَه اختَصَّهم بوحْيِه، وجَعَلَهم أُمناءَ على رسالتِه، ووسائطَ بينَه وبين عبادِه، وخصَّهم بأنواعِ كرامتِه: فمنهم من اتخذَه خليلًا، ومنهم من كلَّمه تكليمًا ، ومنهم من رَفَعه على سائرِهم درجاتٍ. ولم يجعَلْ لعبادِه وصولًا إليه إلا من طريقِهم، ولا دخولًا إلى جنتِه إلا من خَلْفِهم، ولم يُكْرِمْ أحدًا منهم بكرامةٍ إلا على أيدِيهم؛ فهم أقربُ الخلقِ إليه وسيلةً، وأرفَعُهم عندَه درجةً، وأحبُّهم إليه وأكرمُهم عليه.

• **الطبقةُ الثانيةُ:** من عداهم من الرسلِ على مراتبِهم من تفضيلِهم بعضِهم على بعضٍ.

• **الطبقةُ الثالثةُ:** الأنبياءُ الذين لم يُرسَلوا إلى أُممِهم، وإنما كانت لهمُ النبوةُ دونَ الرسالةِ، فاختُصُّوا عن الأمةِ بإيحاءِ اللهِ إليهم، وإرسالِه ملائكتَه إليهم.

---

(١) هو سحنون المحبّ صاحبُ السَّريّ السَّقطي. انظر: طبقات الصوفية (١٩٦).



• **الطبقةُ الرابعةُ**: ورثةُ الرسلِ وخلفاؤُهم في أممهم، وهم القائمونَ بما بُعثوا به علمًا وعملًا ودعوةً للخلقِ إلى اللهِ على طريقِهم ومنهاجِهم. وهذه أفضلُ مراتبِ الخلقِ بعد الرسالةِ والنبوةِ، وهي مرتبةُ الصدِّيقيةِ.

ولهذا قرنَهم اللهُ تعالى في كتابِه بالأنبياءِ فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، وهؤلاءِ هم الربَّانيونَ، وهم الراسخونَ في العلمِ، وهم الوسائطُ بين الرسولِ ﷺ وأمتِه.

ومرتبةُ الصدِّيقينَ فوقَ مرتبةِ الشهداءِ، ولهذا قدَّمهم عليهم.

والمقصودُ أن درجةَ الصدِّيقيةِ والرَّبانيةِ، ووراثةِ النبوةِ وخلافةِ الرسالةِ هي أفضلُ درجاتِ الأُمةِ. ولو لم يكنْ من فَضْلِها وشرفِها إلا أنَّ كلَّ من عَلِمَ بتعليمِهم وإرشادِهم أو عَلَّم غيرَه شيئًا من ذلك كان لهم مثلُ أجرِه ما دامَ ذلك جاريًا في الأمةِ على آبادِ الدهورِ. وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لعليِّ بنِ أبي طالبٍ: **«واللهِ لأَنْ يهدِيَ اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمرِ النَّعَمِ»**[1].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: **«من سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً فعُمِل بها بعدَه كان له مثلُ أجرِ من عَمِلَ بها، لا ينقُصُ ذلك من أجورِهم شيئًا»**[2].

وصحَّ عنه أنه قال: **«من يُردِ اللهُ به خيرًا يُفقِهُه في الدِّينِ»**[3].

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٢) رواه مسلم (١٠١٧).
(٣) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

وعنه ﷺ أنه قال: «**إن اللهَ وملائكتَه يصلُّونَ على معلِّمِ الناسِ الخيرَ**»(١).

• **الطبقةُ الخامسةُ**: أئمةُ العدلِ وولاتُه الذين تأمَنُ بهم السبُلُ، ويستقيمُ بهم العالمُ، ويَسْتنصرُ بهم الضعيفُ، ويذِلُّ بهم الظالمُ، ويأمنُ بهم الخائفُ، وتُقامُ بهم الحدودُ، ويُدفعُ بهم الفسادُ، ويأمرونَ بالمعروفِ وينهوْنَ عن المنكرِ، ويقامُ بهم حكمُ الكتابِ والسنَّةِ، وتُطفأُ بهم نيرانُ البِدَعِ والضلالةِ.

وهؤلاءِ هم الذين تُنصبُ لهم المنابرُ من النورِ عن يمينِ الرحمنِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ فيكونونَ عليها.

قال النبيُّ ﷺ: «**المقْسِطُونَ عند الله على مَنَابِرَ من نورٍ يومَ القيامةِ عن يمينِ الرحمنِ تبارك وتعالى، وكِلْتَا يديْهِ يمينٌ، الذين يَعْدِلُونَ في حُكْمِهم وأهْلِيهِمْ وما وَلُوا**»(٢).

• **الطبقةُ السادسةُ**: المجاهدونَ في سبيلِ الله، وهم جندُ الله الذين يقيمُ بهم دينَه، ويدفعُ بهم بأسَ أعدائِه، ويحفظُ بهم بيضةَ الإسلامِ، ويحمِي بهم حوزةَ الدينِ. وهم شركاءُ لكلِّ من يحمونَه بسيوفِهم، في أعمالِهم التي يعلمونَها، وإن تناءَتْ ديارُهم، ولهم مثلُ أجورِ من عبدَ اللهَ بسببِ جِهَادِهم وفتوحِهم، فإنهم كانوا هم السببُ فيه.

وقد تَضَافَرتْ آياتُ الكتابِ وتواترتْ نصوصُ السنَّةِ على الترغيبِ في الجهادِ، والحضِّ عليه، ومدحِ أهلِه، والإخبارِ عمَّا لهم عند ربِّهم من أنواعِ

---

(١) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧).

الكراماتِ والعطايا الجزيلاتِ. ويكفي في ذلك قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف:١٠]، فتشوَّفَتِ النفوسُ إلى هذه التجارةِ الرابحةِ التي الدالُّ عليها ربُّ العالمينَ العليمُ الحكيمُ، فقال: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾، فكأنَّ النفوسَ ضنَّت بحياتِها وبقائِها، فقال: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، يعني أن الجهادَ خيرٌ لكم من قعودِكم طلبًا للحياةِ والسلامةِ. فكأنها قالتْ: فما لنا في هذا الجهادِ من الحظِّ؟ فقال: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾، مع المغفرةِ: ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾. فكأنها قالتْ: هذا في الآخرةِ فماذا لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

• **الطبقةُ السابعةُ:** أهلُ الإيثارِ والصدقةِ والإحسانِ إلى الناسِ بأموالِهم على اختلافِ حاجَاتِهم ومصالِحِهم، من تفريجِ كُرباتِهم، ودفعِ ضروراتِهم، وكفايَتِهم في مهمَّاتِهم. وهم أحدُ الصِّنفينِ اللذينِ قال النبيُّ ﷺ فيهم: «**لا حسدَ إلا في اثنتينِ: رجلٍ آتاه اللهُ الحكمةَ فهو يَقْضِي بها ويعلِّمُها الناسَ، ورجلٍ آتاه اللهُ مالًا وسلَّطَه على هَلَكَتِه في الحقِّ**»(١). يعني أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يَغْبِطَ أحدًا على نعمةٍ ويتمنَّى مِثْلَها إلا أحدُ هذينِ. وذلك لما فيهما من

(١) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

النفعِ العامِّ والإحسانِ المتعدِّي إلى الخلقِ: فهذا ينفعُهم بعلمِه، وهذا ينفعُهم بمالِه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤].

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١١].

وحيثُ جاء هذا الإقراضُ في القرآنِ قيَّده بكونِه حسنًا، وذلك يجمعُ أمورًا ثلاثةً: أحدُها: أن يكونَ من طيِّب مالِه، لا من رديئِه وخبيثِه. الثاني: أن يُخرِجَه طيبةً به نفسُه، ثابتةً عند بذلِه، ابتغاءَ مرضاةِ الله. الثالث: أن لا يمنَّ به ولا يؤذِي. فالأولُ يتعلَّقُ بالمالِ، والثاني يتعلَّقُ بالمنفِقِ بينَه وبينَ الله، والثالثُ بينَه وبين الآخذِ.

فهذه الطبقاتُ الأربعةُ من طبقاتِ الأمةِ هم أهلُ الإحسانِ والنفعِ المتعدِّي وهم: العلماءُ، وأئمةُ العدلِ، وأهلُ الجهادِ، وأهلُ الصدقةِ وبذلِ الأموالِ في مرضاةِ الله. فهؤلاءِ ملوكُ الآخرةِ، وصحائفُ حسناتِهم متزايدةٌ، تُملَى فيها الحسناتُ وهم في بطونِ الأرضِ، ما دامت آثارُهم في الدنيا. فيا لها من نعمةٍ ما أجلَّها، وكرامةٍ ما أعظمَها! يختصُّ اللهُ بها من يشاءُ من عبادِه.

• **الطبقةُ الثامنةُ:** طبقةُ من فتحَ اللهُ له بابًا من أبوابِ الخيرِ القاصرِ على نفسِه كالصلاةِ، والحجِّ، والعمرةِ، وقراءةِ القرآنِ، والصومِ، فهو مجاهدٌ في

تكثيرِ حسناتِه، ومَلْءِ صحيفتِه بها، وإذا عمِلَ خطيئةً تابَ إلى الله منها. فهذا على خيرٍ عظيمٍ، وله ثوابُ أمثالِه من عُمَّالِ الآخرةِ. ولكن ليسَ لَه إلا عملُه، فإذا مات طُوِيَتْ صحيفتُه بموتِه. فهذه طبقةُ أهلِ الربحِ والحظْوَةِ أيضًا عند الله.

• **الطبقةُ التاسعةُ**: طبقةُ أهلِ النجاةِ. وهي طبقةٌ من يؤدِّي فرائضَ الله، ويتركُ محارِمَه، مقتصرًا على ذلك، لا يزيدُ عليه ولا ينقصُ منه. وهذا من المفلحينَ بضمانِ رسولِ الله ﷺ لمن أخبرَه بشرائعِ الإسلامِ، فقال: واللهِ لا أزيدُ على هذا، ولا أنقصُ منه. فقال: «**أفلحَ إن صدقَ**»[1].

فإن غَشِيَ أهلُ هذه الطبقةِ كبيرةً، وتابوا منها توبةً نصوحًا، لم يخرجُوا من طبقتِهم، وكانوا بمنزلةِ من لا ذنبَ له. فتكفيرُ الصغائرِ يقعُ بشيئينِ: أحدهما: الحسناتُ الماحِيَةُ، والثاني: اجتنابُ الكبائرِ.

• **الطبقةُ العاشرةُ**: طبقةُ قومٍ أسرفوا على أنفسِهم، وغَشُوا كبائرَ ما نَهى اللهُ عنه، لكن رُزِقوا التوبةَ النصوحَ قبلَ الموتِ، فماتوا على توبةٍ صحيحةٍ. فهؤلاءِ ناجونَ من عذابِ الله إما قطعًا عند قومٍ، وإما ظنًّا ورجاءً عند آخرينَ. وهم موكُولونَ إلى المشيئةِ، ولكنْ نصوصُ القرآنِ والسنَّةِ تدلُّ على نجاتِهم وَقبُولِ توبَتِهم، وهو وعدٌ وعدَهم اللهُ إيَّاه، واللهُ لا يخلفُ الميعادَ.

• **الطبقةُ الحاديةَ عشرةَ**: طبقةُ أقوامٍ خَلَطوا عملًا صالحًا وآخرَ سيئًا، فعمِلُوا حسناتٍ وكبائرَ، ولقُوا اللهَ مُصرِّينَ عليها غيرَ تائبينَ منها، لكن

---

(١) رواه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

حسناتُهم أغلبُ من سيئاتِهم، فإذا وُزنَتْ بها رجَحتْ كِفَّةُ الحسناتِ، فهؤلاءِ أيضًا ناجونَ فائزونَ. قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٨-٩].

وهذه الموازنةُ تكونُ بعد القَصَاصِ، واستيفاءِ المظلومينَ حقوقَهم من حسناتِه. فإذا بقي له شيءٌ منها وُزِنَ هو وسيئاتُهُ.

• **الطبقةُ الثانيةَ عشرةَ:** قومٌ تساوَتْ حسناتُهم وسيئاتُهم، فتقابلَ أَثَرَاهُما فتَقَاوَما، فمنعتْهم حسناتُهم المساويةُ من دخولِ النارِ، وسيئاتُهم المساويةُ من دخولِ الجنةِ. فهؤلاءِ من أهلِ الأعرافِ، لم يَفْضُلْ لأحَدِهم حسنةٌ يستحقُّ بها الرحمةَ من ربِّه، ولم يَفْضُلْ عليه سيئةٌ يستحِقُّ بها العذابَ.

فؤلاءِ الطبقاتُ هم أهلُ الجنةِ الذين لم تمسَّهم النارُ.

• **الطبقةُ الثالثةَ عشرةَ:** طبقةُ أهلِ المحنةِ والبليةِ، نعوذُ بالله، وإن كانت آخرتُهم إلى عفوٍ وخيرٍ. وهم قومٌ مسلمونَ خفَّتْ موازينُهم، ورجحَتْ سيئاتُهم على حسناتِهم، فغلبتْها السيئاتُ. فهذه الطبقةُ هي التي اختلفتْ فيها أقاويلُ الناسِ، وكثُرَ فيها خوضُهم، وتشعَّبَتْ مذاهبُهم، وتشتّتتْ آراؤُهم.

فطائفةٌ كفَّرتْهم، وطائفةٌ أوجَبَتْ لهم الخلودَ في النارِ، وطائفةٌ نزَّلتْهُم منزلةً بين منزلَتَي الكفارِ والمؤمنينَ.

وقالتِ المرجئةُ على اختلافِ آرائِهم: لا ندْرِي ما يفعلُ اللهُ بهم.

فهذه الأقوالُ هي التي يعرفُها أكثرُ الناسِ، ولا يحكِي أهلُ الكلام غيرَها.

وهؤلاءِ هم القسمُ الذين جاءتْ فيهم الأحاديثُ الصحيحةُ الثابتةُ عن رسولِ الله ﷺ بأنَّهم يدخلونَ النارَ، فيكونونَ فيها على مقدارِ أعمالِهم: فمنهم من تأخذُه النارُ إلى كعبَيْه، ومنهم من تأخذُه إلى أنصافِ ساقَيْه، ومنهم من تأخذُه إلى ركبتَيْه. ويلبثونَ فيها على قدْرِ أعمالِهم، ثم يخرجونَ منها، فينبتونَ على أنهارِ الجنَّةِ، فيُفيضُ عليهم أهلُ الجنةِ من الماءِ حتى تنبُتَ أجسادُهم، ثم يدخلونَ الجنةَ. وهم الطبقةُ الذين يخرجونَ من النارِ بشفاعةِ الشافعينَ، وهم الذين يأمرُ اللهُ تعالى سيدَ الشفعاءِ مرارًا أن يخرِجَهم من النارِ بما معهم من الإيمانِ.

• **الطبقةُ الرابعةَ عشرةَ:** قومٌ لا طاعةَ لهم ولا معصيةَ، ولا كفْرَ ولا إيمانَ، وهؤلاءِ أصنافٌ: منهم من لم تبلُغْه الدعوةُ بحالٍ ولا سَمِعَ لها بخبرٍ. ومنهم المجنونُ الذي لا يعقلُ شيئًا ولا يميزُ. ومنهم الأصمُّ الذي لا يسمعُ شيئًا أبدًا. ومنهم أطفالُ المشركينَ الذين ماتوا قبلَ أن يُميزوا شيئًا، فاختلفتِ الأمةُ في حكمِ هذه الطبقةِ اختلافًا كثيرًا.

• **الطبقةُ الخامسةَ عشرةَ: طبقةُ الزنادقةِ.** وهم قومٌ أظهروا الإسلامَ ومتابعةَ الرسلِ، وأبطَنوا الكفرَ ومعاداةَ اللهِ ورسُلِه. وهؤلاءِ هم المنافقونَ، وهم في الدرْكِ الأسفلِ من النارِ. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥]. فالكفارُ المجاهرونَ بكفرِهم أخفُّ، وهم فوقَهم في دركاتِ النارِ؛ لأنَّ الطائفتينِ اشتركَتا في الكفرِ ومعاداةِ الله ورسلِه، وزادتِ المنافقونَ عليهم بالكذبِ والنفاقِ. وبليةُ المسلمينَ بهم أعظَمُ من بليتِهم بالكفارِ المجاهرينَ، ولهذا قال تعالى في حقِّهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤].

وإنما كانت هذه الطبقةُ في الدَّرْكِ الأسفلِ لغِلَظِ كفرِهم، فإنَّهم خالطوا المسلمينَ وعاشَروهم، وباشروا من أعلامِ الرسالةِ وشواهدِ الإيمانِ ما لم يباشِرْهُ البعَداءُ، ووصلَ إليهم من معرفَتِه وصِحَّتِه ما لم يَصِلْ إلى المنابذينَ بالعداوةِ؛ فإذا كفَروا مع هذه المعرفةِ والعلمِ كانوا أغلظَ كفرًا، وأخبثَ قلوبًا، وأشدَّ عداوةً لله ولرسولِه وللمؤمنينَ من البعداءِ عنهم، وإن كان البعداءُ متصدينَ لحربِ المسلمينَ. ولهذا قال تعالى في المنافقينَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣]. وقال فيهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨]. وقال في الكفار: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]. فالكافرُ لم يعقِلْ، والمنافقُ أبصَرَ ثم عَمِيَ، وعرَف ثم تجاهَلَ، وأقرَّ ثم أنكرَ، وآمنَ ثم كفرَ.

ومن تأملَ ما وصفَ اللهُ به المنافقينَ في القرآنِ من صفاتِ الذمِّ، علِمَ أنهم أحقُّ بالدركِ الأسفلِ. فإنه وصَفَهم بمخادعتِه ومخادعةِ عبادِه. ووصفَ قلوبَهم بالمرضِ، وهو مرضُ الشبهاتِ والشكوكِ. ووصفَهم بالإفسادِ في الأرضِ وبالاستهزاءِ بدينِه وعبادِه، والطغيانِ، واشتراءِ الضلالةِ بالهدى، والصَّمَمِ والبكمِ والعَمَى، والحيرةِ، والكسلِ عند عبادتِه، والرياءِ، وقلةِ ذكرِه، والترددِ ـ وهو التذبذبُ ـ بين المؤمنينَ والكفارِ، فلا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ، والحلفِ باسمِه تَعَالى كذبًا وباطلًا، وبالكذبِ، وبغايةِ الجُبْنِ، وبعدمِ الفقْهِ في الدينِ، وبعدمِ العلمِ، وبالبخلِ، وبعدمِ الإيمانِ بالله وباليومِ الآخرِ، وبالريبِ، وبأنهم مضرّةٌ على المؤمنينَ، لا يحصُلُ لهم بصحبتِهم إلا الشرُّ من الخبالِ، والإسراعِ بينهم بالشرِّ وإلقاءِ الفتنةِ، وكراهتِهم لظهورِ أمرِ الله ومجيءِ

الحقِّ، وأنهم يحزنونَ بما يحصُلُ للمؤمنينَ من الخيرِ والنصرِ، ويفرحونَ بما يحصُلُ لهم من المحنةِ والابتلاءِ، وأنهم يتربصُونَ الدوائرَ بالمسلمينَ، وبكراهتِهُم الإنفاقَ في مَرضاةِ الله وسبيلِه، ووصفِهم بأنهم رجسٌ - والرجسُ من كلِّ جنسٍ: أخبثُه وأقذرُه، فهم أخبثُ بني آدمَ وأقذرُهم وأرذُلهم - وبِأنهم فاسقونَ، وبأنهم مضرّةٌ على أهلِ الإيمانِ يقصِدُون التفريقَ بينهم، ويؤون من حاربَهم وحاربَ اللهَ ورسولَه.

ووصفَهم تعالى بالاستهزاءِ به وبآياتِه وبرسولِه، وبأنهم مجرمونَ، وبأنهم يأمرونَ بالمنكرِ وينهونَ عن المعروفِ، ويقبضونَ أيدِيَهم عن الإنفاقِ في مرضاتِه.

ومن صفاتِهم التي وصفَهم بها رسولُ الله ﷺ: الكذبُ في الحديثِ، والخيانةُ في الأمانةِ، والغدُر عند العهدِ، والفجورُ عند الخصامِ، والخُلْفُ عندَ الوعدِ؛ وتأخيرُ الصلاةِ إلى آخرِ وقتِها، ونقرُها عجلةً وإسراعًا، وتركُ حضورِها جماعةً، وأن أثقلَ الصلواتِ عليهم الصبحُ والعشاءُ.

ومن صفاتهم التي وصفَهم اللهُ بها: الشحُّ على المؤمنينَ بالخيرِ، والجبنُ عندَ الخوفِ.

ومن صفاتِهم: أنهم أعذبُ الناسِ ألسنةً، وأمرُّهم قلوبًا، وأعظمُ الناس مخالفةً بينَ أعمالِهم وأقوالِهم. ومن صفاتِهم: أنه لا يجتمعُ فيهم حُسنُ سمتٍ وفِقْهٌ في دينٍ أبدًا.

ومن صفاتهم: أن المؤمنَ لا يَثِقُ بهم في شيءٍ، فإنهم قد أعدّوا لكلِّ أمرٍ مخرجًا منه، بحقٍّ أو بباطلٍ، بصدقٍ أو بكذبٍ، ولهذا سُمِّي (منافقًا) أخذًا من

نَافقَاءِ اليَرْبوعِ. وهو بيتٌ يحفِرُه، ويجعلُ له أسرابًا مختلفةً، وكلما طُلبَ من سَرَبٍ خرج من سَرَبٍ آخر، فلا يتمكَّنُ طالبُه من حَصْرِه في سَرَبٍ واحدٍ.

ومن صفاتِهم: كثرةُ التلونِ، وسرعةُ التقلُّبِ، وعدمُ الثباتِ على حالٍ واحدٍ.

ومن صفاتِهم: أنك إذا دعوتَهم عند المنازعةِ إلى التحاكمِ إلى القرآنِ والسنةِ أبوْا ذلك وأعرضَوا عنه، ودَعوْكَ إلى التحاكمِ إلى طواغيتِهم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٠-٦٣].

ومن صفاتِهم: كتمانُ الحقِّ، والتلبيسُ على أهلِه.

• **الطبقةُ السادسةَ عشرةَ:** طبقةُ رؤساءِ الكفرِ وأئمتِه ودعاتِه الذين كفروا وصدُّوا عبادَ الله عن الإيمانِ وعن الدخولِ في دينِه رغبةً ورهبةً. فهؤلاءِ عذابُهم مضاعَفٌ، ولهم عَذَابَانِ: عذابُ الكُفْرِ، وعذابٌ بصدِّ الناسِ عن الدخولِ في الإيمانِ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل:٨٨]. فأحدُ العذابينِ بكفرِهم، والعذابُ الآخرُ بصدِّهم عن سبيلِ الله.

ولا ريبَ أن الكفرَ يتفاوتُ، فكفرٌ أغلظُ من كفرٍ. كما أن الإيمانَ يتفاوتُ فإيمانٌ أفضلُ من إيمانٍ. فكما أن المؤمنينَ ليسُوا في درجةٍ واحدةٍ بل هم درجاتٌ عندَ الله، فكذلك الكفارُ ليسوا في طبقةٍ واحدةٍ ودَرْكٍ واحدٍ، بل النارُ دَرَكاتٌ كما أن الجنةَ دَرَجاتٌ. ولا يظلِمُ اللهُ من خَلْقِه أحدًا. وهو الغنيُّ الحميدُ.

• **الطبقةُ السابعةَ عشرةَ: طبقةُ المقلِّدينَ.** وهم جُهَّالُ الكفرةِ وأتباعُهم وحميرُهم الذين هم معهم تَبَعٌ، يقولونَ: إنا وجدْنا آباءنا على أُمةٍ، ولنا أُسوةٌ بهم. ومع هذا فهُم متاركونَ لأهلِ الإسلامِ غيرُ محاربينَ لهم، كنساءِ المحاربينَ وخدَمِهم وتُباعِهم الذين لم ينصِبوا أنفسَهم لما نَصَب له أولئك أنفسَهم من السَّعْيِ في إطفاءِ نورِ اللهِ وهدمِ دينِه وإخمادِ كلماتِه، بل هم معهم بمنزلةِ الدوابِّ.

وقد اتفقتِ الأمةُ على أنَّ هذه الطبقةَ كفارٌ وإن كانوا جُهَّالًا مقلدينَ لرؤسائِهم وأئمتِهم.

وهذا المقلِّدُ ليس بمسلمٍ، وهو عاقلٌ مكلَّفٌ، والعاقلُ المكلَّفُ لا يخرجُ عن الإسلامِ أو الكفرِ. وأمَّا من لم تبلُغْه الدعوةُ فليس بمكلَّفٍ في تلك الحالِ، وهو بمنزلةِ الأطفالِ والمجانينَ، وقد تقدَّم الكلامُ عليهم. والإسلامُ هو توحيدُ الله وعبادتُه وحدَه لا شريكَ له، والإيمانُ بالله وبرسولِه واتباعُه فيما جاءَ به. فما لم يأتِ العبدُ بهذا فليسَ بمسلمٍ، وإن لم يَكنْ كافرًا معاندًا، فهو كافرٌ جاهلٌ.

وقد أخبرَ الله تعالى في القرآنِ في غيرِ موضعٍ بعذابِ المقلِّدينَ لأسلافِهم من الكفارِ، وأن الأتباعَ مع متبوعِهم، وأنهم يتحاجُّون في النارِ، وأن الأتباعَ يقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

•• الجن وأحوالهم

• **الطبقةُ الثامنةَ عشرةَ: طبقةُ الجِنِّ.** وقد اتفقَ المسلمونَ على أنَّ منهم المؤمنُ والكافرُ، والبرُّ والفاجِرُ. قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن:١١].

وقال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن:١٤]، فالمسلمونَ: الذين آمنوا بالله ورسولِه منهم. والقاسطونَ: الجائرونَ العادلونَ عن الحقِّ.

وقد تضمَّنتْ هذه الآياتُ انقسَامَهم إلى ثلاثِ طبقاتٍ: صالحينَ، ودونَ الصالحينَ، وكفَّارٍ. وهذه الطبقاتُ بإزاءِ طبقاتِ بني آدمَ، فإنها ثلاثة: أبرارٌ، ومقتصدونَ وكفَّارٌ. فالصالحونَ بإزاءِ الأبرارِ، ومَنْ دونَهم بإزاءِ المقتصدين، والقاسطونَ بإزاء الكفارِ.

وقد اتفقَ المسلمونَ على أن كفارَ الجنِّ في النارِ. قد دلَّ على ذلك القرآنُ في غيرِ موضعٍ كقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣]، وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية [ص:٨٥].

وقد دلَّت سورةُ الرحمنِ على تكليفِهم بالشرائع كما كُلِّفَ الإنسُ، ولهذا يقولُ سبحانَه في إثرِ كلِّ آيةٍ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وأما حكُم مؤمِنيهم في الدارِ الآخرةِ، فجمهورُ السلفِ والخلفِ على أنهم في الجنةِ.

وأما أحكامُهم في الدنيا فاختلفَ الناسُ: هل هم مكلَّفونَ بالأمرِ والنَّهيِ، أم مضطرُّون إلى أفعالِهم؟

فالصوابُ الذي عليه جمهورُ أهلِ الإسلامِ أنهم مأمورونَ منهيُّون مكلَّفونَ بالشريعةِ الإسلاميةِ. وأدلَّةِ القرآنِ والسنةِ على ذلك أكثرُ من أن تُحصَرَ.

فإذا عُلمَ تكليفُهم بشرائعِ الأنبياءِ ومطالبتُهم بها، وحَشْرُهم يومَ القيامةِ للثوابِ والعقابِ، عُلِمَ أن محسِنَهم في الجنةِ كما أن مسيئَهم في النارِ.

وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى حكايةً عن مؤمِنيهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن:١٣]، وبهذه الحجَّةِ احتجَّ البخاريُّ.

■■■■■



الموضوع **الصفحة**